صفاء وهناء

رواية

مالك بوروز

الطبعة الأولى

2020م- 1442هـ

ديوان العرب

للنشر و التوزيع

عنـــوان الكتاب: صفاء وهناء

اســـــم المـؤلف: مالك بوروز

التصنيف الأدبي: رواية

رقـم الإيـــــداع: 22284 / 2020

الترقيـــم الدولي: 6 - 27 - 6749 - 977 – 978

تـصـمـيـم الغلاف: د. محمد وجيه

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

التنسيق الداخلي: د. محمد وجيه

رقـــــم الطبـعـة: الطبعة الأولى

المديـر العام: د. فادية محمد هندومة

المدير التنفيذي: د هبة ماردين

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

صفاء وهناء

رواية

مالك بوروز

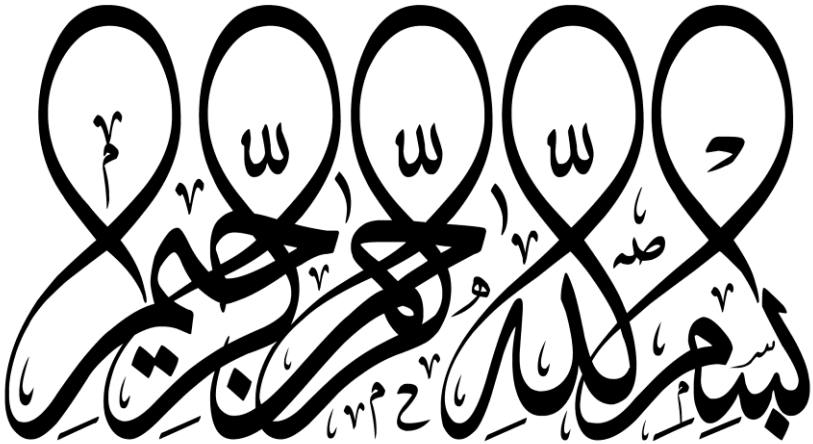
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى الإنسان أي إنسان في هذه الحياة...

إلى كل من لم تمت غيرته على دينه وقيمه وشرفه...

إلى المعلم الأول أبي محمد بن محمد أمزيان من علمني الكتاب والعلم والتحصيل فأنار الدرب وأدى أمانة الرعاية بأحسن وجه...

إلى الأم الغالية التي كانت نعم السند والملاذ وقاست وناضلت في الحياة من أجل أسرتها وبنيها فشافاها الله وأبي وأطال الله في عمرهما، وحفظ اللّٰهُمَّ إخوتي جميعهم وبأسمائهم، حفظهم الله من كل سوء، فمن كل أخ أخذت حروفاً وجملاً وعبراً من الحياة أغنتني عن خوض تجارب عدة، هم سبعة إخوة أعتز بوجودهم وبذكرهم أينما كانوا وتعينوا...

إلى عائلتي الكبيرة أينما كانت في ربوع المغرب سواء بوجدة أوبالناظور أو بالريف أو بفاس...

إلى أصحاب لي عرفوني في الأحياء في المدارس في الثانويات وفي الجامعات، في أماكن العمل، في مجموعات التواصل، إلى هؤلاء تحية احترام وتقدير، هم كثر ولو شئت لعكفت على ذكرهم أياماً وأسلت في شكرهم مداداً يتلوه مداد.

إلى دار ديوان العرب للنشر والتوزيع التي كانت لنا نعم الدار والملجأ، وكان مسؤولوها نعم القوم هم، خلقاً ورقياً وثقافة وحلماً، فإليهم إهدائي هذا مع متمنياتي لهم بالنجاح الدائم بعون الله وحفظه.

مالك بوروز

****

المكيدة

هما حيان كان يضرب بهما المثل في الرقي والغنى، كيف لا وهما يضمان أغنياء المدينة ومثقفيها ومفكريها، بل ونخبها بصفة عامة. كان الأمان فيهما سائداً، والاحترام فيهما قائدًا، نساء الحيّ لا يخرجن إلا في حياء، لا قول يُدنس أسماعهن، ولا كدر يلقينه عند خروجهن، كذلك كن في أبهى الحلل، لكن في حدود الاحتشام واللباس الراقي المحافظ.

سمي الحيان بحيّ الصفاء وحيّ الهناء، كان بكل منهما دكان، «داوود» صاحب دكان حيّ الهناء، «يحيى» صاحب دكان حيّ الصفاء، كانا أبناء عمٍ من أصل واحد جامع، أصل يختلف مورده ويبتعد عن جميع الأصول الموجودة في الحيين.

كان ابنا العم يلتقيان كل سبت عند حائط قديم على هامش الحيين، معاً يتضاحكان ويتمازحان، كانت الأمور طبيعية في الأيام الخوالي، لكن ذلك اليوم بالذات، بدا غريباً لون عيونهما وهما يتحاوران، كان هنالك بريقُ طموح مشوب بالغدر والاحتيال، والشر المستتر بالنفاق، افترقا كلاهما بضحكات ماكرة، وعيون ثعالب تتحين الانقضاض على دجاجها، فأي دجاج ستتصيد؟ وأي مكر اشرأب فجأة في نفوس بقالين شحيحين؟

انبرى الصباح الموالي على الحيين بحدثٍ غريبٍ، عند مجمع دروبهما وعلى الجدران، أُلصقت منشورات غريبة، في حيّ الهناء منشورات كتب فيها: "نساء حيّ الصفاء أجمل منكن يا نساء حيّ الهناء"، أما في الحيّ الآخر فمنشورات كتب فيها أيضاً: " نساء حيّ الهناء يعشن حرية أكثر منكن بكثير يا نساء حيّ الصفاء".

كانت المنشورات مادة دسمة للتهاوش، رغم أن العديد وخاصة الرجال نظر إليها بعيون مستهزئة، إلا أنّ غالبية نساء الحيين حركت فيهن تلك المنشورات غيرة وفضولاً، جعلتهن لا يتركن الأمر مجرد حادث عابر، بل إن مصابيح البيوت في عمومها ذلك الليل، ما كتب لها الانطفاء باكراً، وشوشات لا تكاد تبين، وبين الفينة والأخرى كلام يُسمع، وحوار حاد في بعض الأحايين، جعل الرجال لا ينعمون لا بهناء ذلك الليل، ولا بصفائه، من جراء نكد وأنين نسوة استفزت المنشورات كبرياءهن.

في اليوم الموالي، خرجت ‹‹زوجة داوود›› من حمام نساء الهناء، وفي الضفة الأخرى من الحيّ الآخر، خرجت بعد حين ‹‹زوجة يحيى›› من حمام نساء الصفاء، خرجتا وعلى وجهيهما ضحكة مكر، هي ذاتها الضحكة التي بدت على محيا أزواجهما، خرجتا ومن ورائهما هدير نساء يغلي في الحمامين معاً، فهدير حمام نساء الهناء لم يهدأ، إلا على قرار مجموعة من النسوة اللواتي قررن تحطيم تقاليد الحيين معاً، ومواجهة نساء حيّ الصفاء، بارتداء أبهى

وأفتن الملابس التقليدية والتجمل بأرقى المساحيق المحلية، ثم الذهاب والتسكع بعض الوقت في دروب حي الصفاء تحدياً، إنه قرار اقترحته ‹‹زوجة داوود›› عليهن قبل خروجها، وكان لها ما كانت متيقنة حدوثه، وهي التي خبرت نساء الحي ونقاط ضعفهن.

في الجبهة المقابلة كانت زوجة يحي قد نجحت في زرع فكرتها في عقول نسوة حيّ الصفاء، خطة اقتضت ضرب نساء حيّ الهناء حين مجيئهن بالبيض الفاسد الذي باعته لهن زوجة يحي نفسها، وكذلك كان المخطط ينتظر صبحه.

حلَّ الوقت المعلوم، وخرجت مجموعة من نساء حي الهناء خفية من عيون أزواجهن، وقصدن حي الصفاء ليبدين جمالهن وفتنتهن، الذي أنكرته نسوة الحي الآخر، لكن كان الأمر غير مرحب به قط، فما إن أقبلن حتى أصبح البيض الفاسد يترامى في أحضانهن، وعلى رؤوسهن بقوة وغزارة... كانت السماء فعلاً تمطر بيضاً!

****

السماء تمطر بيضاً

عادت نسوة حي الهناء في حالة يرثى لها إلى بيوتهن، تفوح من أجسادهن رائحة البيض الكريهة، كانت الفضيحة مجلجلة ووقعها قاس، لم يتحملها الأزواج، ولا الأولاد، ولا الإخوة ولا الأحباب، فبادر البعض بالتطليق مباشرة، ومنهم من تقبل الفضيحة على مضض، كان الوضع كارثياً في الحي، وأضحت البيوت حبلى بجنين من الحقد يكبر رويداً ضد الحي الآخر، حقد أضحى يتغذى بتواتر الكلمات وتضخيمها، كان الشباب بحماسه يلهم الكبار ويضغط على بصيرتهم، خرج الشباب بالعصي والهراوات قاصدين الحي الآخر يناصبونه العداء، من ورائهم شيوخ تجردوا من هول المصاب من أي حكمة وتعقل...

أبصرهم داوود من دكانه وأوقفهم، حاول بخبثه أن يوهمهم أنه أحرص على سلامتهم وسلامة رقي حيهم وعمرانه من أي ضرر ناتج عن الاقتتال، خاطبهم بلغة التعقل وبعد النظر، وأخبرهم أنّ للانتقام أوجهاً أبلغ قوة من حمل العصي والتهجم بها، قال لهم هاجموا دور الحي المقابل بأكبر كمية من البيض الفاسد، فبهذا تردون الضربة بالعقاب ذاته وتجعلون كل دروب الحي الأخر كريهة لا تطاق.

تساءل وجهاء الحي عن إمكانية وجود كمية كبيرة من ذلك البيض الفاسد؟ أخبرهم أنه سيوفرها لهم، ولكن أمر جلبه من خارج المدينة مكلف جداً، حماسة أصحاب الحي أعمتهم، وقالوا له أنهم على استعداد بأن يدفعوا له ما يريد، لقاء كمية كبيرة من ذلك البيض.

اتسعت عينا « داوود» وهو يرى أرباحه مضمونة في صفقة العمر التي ستجعله بغباء هؤلاء غنياً في طرفة عين، كانت الكمية موجودة لديه في مستودع يملكه هو وابن عمه «يحيى»، على أطراف المدينة، وهو بيض فاسد جمعوه لسنين قد خلت من المدينة بأسرها مجاناً، دون أن يدفعوا فيه فلساً واحداً.

كان الاتفاق يقضي بجلب الكمية في اليوم الموالي، على أن يكون الهجوم بغتة في ظلمة اليوم نفسه.

جنّ الليل وتساقط على حيّ الصفاء مطر من بيض، كانت الكمية كبيرة فعلاً، وغارة مباغتة كهذه في عز الليل، كانت أقوى من أن تجعل الرجال يخرجون وهم في لحظة الذهول تلك، انتظروا حتى هدأت عاصفة البيض، فخرجوا لكن شباب الحي المهاجم كانوا قد ولوا الأدبار، وفروا تاركين وراءهم رائحة كريهة، جعلت ناس الحي كله تلك الليلة يزمعون المبيت في العراء بعيداً عن الحي ورائحته.

أضحى الحي مهجوراً في ليلته تلك إلا من أناس ملثمين دخلوه خفية، وقصدوا جل الدور الغنية والفاحشة الثراء، سلبوا أموالها وكل ثمين، وخرج اثنان من الملثمين يتضاحكان، كانت الضحكة مألوفة، وعيونهما من خلف اللثام معروفة، إنهما ابنا العم يحي وداوود، جاؤوا بصحبة بعض أبناء عمومتهم المتفرقين في المدينة، واستغلوا فراغ الحي من ساكنيه، كانت سرقة لا تخطر على بال، سرقة سيتحمل جريرتها كل من هاجم بالبيض الفاسد من ذاك الحي المجاور، سيتحملون جريرة الهجوم والسرقة معاً.

حل الصباح على واقع كريه وسرقة كبرى في حي الصفاء، جُنّ للصدمة أحد الأغنياء واسمه السيد ‹‹سعدان››، ومات لها آخر وكان يمل اسم ‹‹حكيم››، كانت ضربة في العمق، استدعيت شرطة المدينة، وكان المتهمون يشار إليهم بالأصابع دون أدنى شك، إنهم بعض شباب حي الهناء، وبتحريض من أوليائهم، لم تنتظر الشرطة توضيحاً أكثر بعد أن استفحل الوضع، فهمَّت في الصباح ذاته إلى القيام بحملة اعتقالات واسعة، طالت كل شباب الحي المشارك وأوليائه الذين حرضوا على هجوم البيض، لم يشفع لهم إنكارهم السرقة، فالأدلة كانت قوية ضدهم، عرجت الشرطة على دكان داوود الذي أمد المهاجمين بالبيض، لكنها لم تجد سنداً قانونياً يقضي باعتقاله، فهو تاجر باع بيضاً فاسداً بطلب من وجهاء المدينة وبرغبتهم، والبيض ليس سلاحاً يُمنع بيعه، كما أنه نفى أي تحريض حرض به المهاجمين أو أقنعهم به، وهو

ليس له ابن ولا تحت سلطته أحد الأشخاص من الذين هاجموا كي يُتهم بالتحريض، كان قائد الشرطة وهو ينظر إليه يدرك بحدسه خبث عينيه، لكن إجادته في الدفاع عن نفسه، جعلت القانون جامداً وقاصراً عن إدانته ، هكذا أضحى القانون لا يحمي المغفلين، بل يحمي الدهاة ويغنيهم.

****

الفتنة تستفيق

البيض صار ملتصقاً بالجدران في حي الصفاء، زادته أشعة الشمس التصاقاً، وتعذر على أهل الحي تنظيفه، طبعاً حدة الرائحة الكريهة قد زالت وهذا هو المهم، لكن جمالية الحي تأثرت، لهذا اجتمع وجهاءه لبحث هذا الإشكال، كان بينهم السيد يحي وعرض عليهم مسحوقاً قوياً، يستطيع إزالة البيض الملتصق دون التأثير على صباغة الجدران والأبواب، تهلل وجه الحاضرين، وجمعوا ليحي مالاً كافياً لشراء المسحوق العجيب من خارج المدينة، بل ومالاً يقضي بجلب العاملين وتشغيلهم في عمليات التنظيف تلك، وقد حاول يحي إبراز نوع من السخاء والتضامن بأن أعفى المسروقة ثرواتهم من دفع المال، وأظهر أمام الكل رغبته في المساعدة، خطوة لاقت استحسان الوجهاء وأشادوا به وبنبله.

عاد يحي إلى اللقاء بابن عمه داوود وقص عليه نبأ القوم ورغبتهم في جلب المسحوق المنظف، وما سيجره عليه الأمر من أرباح، لقد حققا في أيام وجيزة صفقات وسرقات يقضي فيها المرء حياته مكافحاً ولا يبلغ قيمة ثرواتها. في مسألة العاملين اقترح داوود تشغيل مطلقات حي الهناء، فهن الآن منبوذات في الحي، وأي مبادرة تفتح الآفاق لهن سيتقبلنها بصدر

رحب، ضحكا معاً ضحكة الثعالب ذاتها، فتشغيل النساء في أمور كانت حكراً على الرجال هو مدخل لإحقاق مآرب أخرى قادمة.

قبل أن يمضي يحي مودعاً داوود، نظر الأخير في عينيه وقال: حان وقت النداء، أجاب يحي في استفسار: أتقصد ‹‹سليمان وسارة››؟

-نعم ابنتي سارة قادمة الأسبوع المقبل، هناك أسرتان تريدان بيع دورها، فغياب ولاة أمورهم في السجن بعد حادثة البيض، ضيق عليهم الأمور وكرهوا البقاء في حيهم هذا، هي فرصة سنبدأ فيها بتوسيع طموحنا في الحيين معاً، سارة ستشتري المنزلين بما لدينا من مال.

-نعم فهمت، وأنا بدوري أنادي سليمان ابني ليشتري منزلين آخرين بحي الصفاء، واحد توفي صاحبه، وعُرِضَ المنزل للبيع تصفية للتركة، والآخر جنّ مالكه وقررت زوجته البيع والهجرة خارجاً، سليمان كما ابنتك سارة، سيتوسعان في الحيين دون أن يعرف ناسه أن لهم صلة تربطنا بهم.

-أحسنت هدفنا المكتبتين، يجب أن نسعى لاختراقهما في أقرب الأوقات.

-العقار الذي به مكتبة الصفاء يملكه شخص مثقف وهو على صداقة بمالك مكتبة الهناء.

-أعلم هذا هما الأسرتان اللتان لا تتعاملان معنا بالبيع والشراء، ‹‹الشيخ خالد›› صاحب مكتبة الهناء وابنه ‹‹عمر››، كم أكرههما، الوحيدان اللذان لم ينساقا تعاطفاً ولا فعلاً أمام فتنة البيض تلك.

-الأمر ليس بالهين كذلك بالنسبة ‹‹للسيد صلاح›› وزوجته عاقر، لهما إرادة صلبة آمل أن يتمكن سليمان بما سأمده من مال من الاستحواذ على العقارين المجاورين لمكتبة الصفاء ومن بعد اختراقها.

-آمل ذلك أيضاً، بعد أسبوع توافيك زوجتي ومعها الزوجات المطلقات، وأنت تعلم عملك مستر يحي.

-لا تقلق مستر داوود لا تقلق...

قالها يحي بابتسامة خبيثة وانصرفا كل إلى وجهته.

بعد أسبوع كان وجهاء المدينة مندهشين من وجود عشر نساء قبالة متجر يحي، نساء وقفن بسراويل "جينز" وقمصان لاصقة، كانت النساء في قمة الإغراء، أطلقن شعرهن المتموج، تموجه ذاك ينبئ أن جماله كان محصوراً بستر دائم، قد أزيل حديثاً، دخل الوجهاء إلى متجر يحي لاستبيان أمرهن، أخبرهم البقال الشحيح أنهن العاملات الذين سيقمن بالتنظيف، استشاط أحد الوجهاء غضباً قائلاً:

-وهل انعدم الرجال لتأتي بالنساء بهذه الحال يا يحي؟

أجاب يحي موضحاً:

-أوَ تعلم من هن هؤلاء النسوة؟

-ومن سيكن غير عاهرات من المدينة.

-إن نسيت ما فعل رجال حي الهناء بحينا فأنا لم أنسَ، ولا يكفيني سجنهم، هؤلاء بعض النسوة اللواتي طلقن من أزواجهن، نبذن في ذلك الحي فجلبتهن للعمل عندكم أليس في هذا انتقام ما بعده انتقام؟

تهلل وجه الرجل وتعجب الآخرون من ورائه، ورددوا ما أدهاك يا يحي، ضربة معلم،

عادت العصبية لتعميهم وأيدوا يحي على فعله، وخرجوا من دكانه، نظروا نظرة المنتصر والمحتقر ونظرة المفتون أيضاً إلى تلك النسوة، ومضى كل واحد إلى حال سبيله، وعيونهم تجتر ما رأوه من إغراء.

تبسم يحي بخبث ونظر وراءه الى زوجته، وكأنه يسألها كيف أقنعت بدهائها هي وزوجة داود، نسوة كن لا يلبسن إلا لباسهن التقليدي المعروف، ولا يبدين زينتهن إلا لحلالهن، كيف اقتنعن بارتداء ملابس الغرب برضا وقناعة، دون أن يستحيين وبشكل عاد، كيف لهن أن يتركوا الكحل المحلي

ويبدلوه بالماكياج المستورد، كيف لهن أن يبدلن عطر مدينتهن المصنوع في بلادهن، يبدلنه بعطور الغرب بما تحمله من أسماء عالمية.

ابتسامة تعجب يحي تحولت إلى ابتسامة رضا، وهو يتطلع نحو الأفق، أفق كان هو ذاته الذي يتطلع إليه في اللحظة نفسها ابن عمه داوود وهو ينتظر عند مدخل الحي شخصاً ما، وما هي إلا دقائق حتى نزل من الجانب الأيمن لسيارة سوداء، الشخص الذي كان ينتظره، كان فتاة في قمة الجمال والإغراء، بل والإغواء كذلك، حطت رجلاها في دلال وغنج، التفت لها الكل، كيف لا وتلك الساقان المضيئتان عكستا نور الشمس للحاضرين، مالت أعناق المساكين لتسرق ما علا فوق الساقين، لكن الجميلة انتبهت واعتدلت، وما فتئت أن مالت وانحنت مرة أخرى لتحمل حقائبها مرة أخرى، تعمدت الإبطاء، الكل توقف، الحلاق توقف عن القص، الجزار توقف عن القطع، النجار توقف عن النشر، الماشي قد جلس والجالس قد وقف، الكل يسرق نظرات متلصصة، ويحاول معرفة اللون والمقاس، الطول والعرض، كان المنظور إليه مثالياً، بل الجسد وصاحبته كله كان مثالياً بدون أدنى استثناء.

عادت معتدلة لمحت الرجل من بعيد إنه أبوها داوود، كادت أن تصرخ وتجري إليه معانقة، أبي، أبي... لكنها تذكرت وصاياه في الهاتف، لست إلا وسيطاً جاء بك لشراء المنزلين، انسي قرابتنا أمامهم. كتمت عاطفتها حيال

أب لم تره منذ أن زارها قرابة عام مضى، اتجهت إليه في وجوم، وهي تحدث نفسها إنه: الواجب إنه الواجب.

****

الفاتنة

تقف الألباب حائرة أمام جمال بمثل جمال سارة، حين تراها تدرك أنّ للجمال سلطاناً يحكم الرجال عنوة، بهاؤها يخرسهم، ويجعلهم يخفضون أصواتهم في حضرتها احتراماً لحسنها، كانت تلمح نصرها في أعينهم، في تلعثمهم، في تيههم، سلبتهم عقولهم واشترت المنزلين دونما كثرة سؤال عن كنهها، عن أصلها، عن حكايتها، فقط أعينهم كانت تسأل عن هذا الجمال كيف ولد؟ وأين ولد؟ ربما ليجعلوا مكان الميلاد مباركاً، تزوره النساء عند كل حمل ووحم.

هكذا سلموا لها الدور ومواقعها التي تكاد تلتف على مبنى المكتبة بكل بساطة وسذاجة، ابتسامة رضا وقوة اكتست محيا داوود، وهو يرى ابنته تنتصر بجمالها الفاتن على رجال يفتخرون بشواربهم، ولسان دواخله يقول: يالكم من أغبياء.

في اليوم الموالي دخلت سارة المكتبة المحاذية لها برداء فاتن أبرز معالم الفتنة في جسدها، طقطقات حذائها في بهو المكتبة، أشاح عن المكتبة خمار صمتها، جعل القراء يلتفتون إلى الحذاء المزعج الذي أثار فضولهم، نظروا إليه، تريثوا لبرهة في سيقان بدرية، ثم تصاعدت العيون بتمهل لتكتشف

جمال خصر أخاذ، وصدر فياض، بل وصفاء، ودقة وجه يشع جمالاً وأنوثة ودلالاً، نظرت إلى يسارها الكل انتبه إلى جمالها وتأثر، بل وبايع، نظرت إلى يمينها حيث يوجد القيم على المكتبة، فوجدت شاباً لم يعرها اهتماماً، كان يمسك كتاباً، عضت على شفتيها حنقاً، توجهت إليه، وأعطت للمهتمين ظهرها، هن كذلك النساء يهتمن بالذي لا يهتم بهن في النظرات، فضولهن يعجل بهن لمعرفة كنه هذا الذي لا يهتم.

ما باله أتراه أعمى أم أصم هذا الشاب حتى لا ينصاع لجبروت جمالي، وطقطقات حذائي، أسرتها في نفسها سارة وهي واقفة أمام «عمر»، ابن الشيخ خالد صاحب تلك المكتبة، كان جالساً أمامها في ثقة وعزة، لمحت ذلك في عينيه، سلبها بتلك العينين لبرهة لولا أنها تذكرت أنها صاحبة الجمال الأخاذ، همت لمعرفة الكتاب الذي يقرأ، لكنها ما انفكت تنظر في الكتاب حتى خرجت من فيهها قهقهة قوية، اشرأبت لها أعناق الحاضرين لمعرفة سببها، لم يفهموا شيئاً تمددت الآذان مصغية إلى حيث سارة وعمر، أكملت ضحكتها التي أخرجتها من هيبة جمالها بعض الوقت، تداركت الأمر واعتدلت، نظرت إلى الشاب فوجدته يحملق فيها بإعجاب، خالت نفسها هزمته وأنه لفرط جمالها قد جعلته يقرأ الكتاب مقلوباً، وضع عمر الكتاب بكل ثقة وأضحى ينظر إلى سارة مصفقاً، تعجبت الفاتنة لهذا التصرف، لكن عمر استبقها بسؤال قائلاً:

-أتعلمين لِمَ حملت الكتاب مقلوباً؟

أشارت سارة بوجهها بعنجهية، تريد جواباً دون أن تنطق بأي كلمة، فاستطرد عمر قائلاً:

-قهقهة المرأة في مكان عام تنزل من علياء جمالها، وتختزل منه، وتجعل الألباب تصحو وتدرك أنّ لهذا الجمال نقصاً، هذا ما سعيت إليه حينما تعمدت حمل الكتاب مقلوباً أمام حضرتك، لقد رسبتِ في الامتحان، ونجحتُ في الانتقاص من جمالك أمام الحاضرين وهذا مقصدي قد بلغته.

اتسعت عينا سارة إعجاباً، بل وأدركت خطورة الشاب ومدى ذكائه، بعض الضحكات المكتومة التي سمعت ذبيبها من وراء ظهرها، كادت تخرجها عن سيطرتها، لقد غضبت بالفعل، واشتعل صدرها ناراً، آه لو ملكت سيفاً لقطعت رأس هذا المخبول فوراً، هذا الحي الذي استطاع والدها الاحتيال عليه لم تظن أنّ فيه شاباً بهذا الدهاء وسرعة البديهة، والرد المناسب في الوقت المناسب.

تمالكت نفسها ونطقت بكل حنو وتأدب متسائلة:

-فقط أردت من سيادتكم معرفة هل يمكن لي التردد على مكتبتكم بين الفينة والأخرى، أنا أتفهم قدسية هذا الحيز عندكم، سآتيكم غداً بلباس يتلاءم مع هدوء المكان واحترامه، تقبل اعتذاري.

كلمات صدمت عمر، لم يكن ينتظر هذا الهدوء في الرد، من قبل امرأة أصابها في كبريائها، نظر إليها بتقدير وقال لها:

-مرحباً بك في أي وقت تشائين.

تركته، ثم همت بالخروج، وعيونه تتبعانها، أحست بذلك وابتسمت، وعند عتبة المكتبة استدارت بسرعة لتلتقط اهتمامه بها، رصدته مهتماً بعينيه، أشاح بوجهه واهتمامه بسرعة المتورط الذي يريد فراراً من عمل مشين، رمقته، وازدادت ابتسامتها اتساعاً، ثم أنها غابت وذابت بين جدران تخفيها وتبعدها عنه، قد ردت كبرياءها، وكشفت عن نقطة ضعفه، تنهدت وهي تقول في غرور: "لكل ابن أنثى نقطة ضعف، سنخترق المكتبة، أبي أنا على عهدك، لا تخف، عواصف العمل لا توقفها العواطف."

****

إغراء وإغواء

أشرق الصباح، وعمر بالكاد قد عاد رفقة والده من مسجد الحيين الكبير، سُمي مسجد الحَيَّيْن أو هكذا الاسم الذي عرف به، لأنه مسجد يقع بالضبط على حدود الحيّين معاً، «الشيخ خالد» كان إمام «مسجد الوحدة»، الاسم الرسمي للمسجد طبعاً، كان الشيخ إماماً ورعاً، حازماً، محترماً ومهاباً، لكلماته وقع، ولرأيه سداد، إن خاطب أقنع، وإن ناظر أفحم، لكن أعيان الحي وتجاره ولتطور الأوضاع، أصبحوا يتفادونه مؤخراً عن أخذ استشاراته، كانوا يرون في آرائه قيداً، أو تذكيراً بآثام أصبحوا يمارسونها بحكم تجارة تداخل فيها الحلال بالحرام.

لكن الأفدح من هذا، هو ما رآه الشيخ خالد من تحول غريب داخل المسجد، فمجريات الأحداث الأخيرة التي ألمت بالحيين، جعلته يرى أموراً منكرة، فداخل المسجد وضع الناس حدوداً، كانت الفُرقة واضحة، ساريات وهامش يقارب المترين يفصل سكان الحيين المتخاصمين معاً، ولمَّا يحين وقت الصلاة، كان الشيخ بالكاد يقنع الناس على التقارب، ووضع المناكب عند المناكب، كان بعض المرات يزبد، ويُذَكِّر بأن المساجد لله فلتتركوا أحقادكم ضغائنكم خارجاً، لكن ذلك الحقد الذي نشأ وتلك النعرة

كانت أقوى، ما كان يبدد غضب الشيخ إلا ابنه عمر وصديقه السيد ‹‹صلاح›› صاحب مكتبة الصفاء، هذان الاثنان وبضع رجال كانوا يأتون ليَصِلوا الصفوف المتباعدة.

عاد الشيخ وابنه وفي محياه لمسة حزن، نظر إلى ابنه عمر، وقال:

-ما كان لنا أن نترك القوم ونبتعد عن مخالطتهم، سنحاسب على هذا يا بني.

-هم من اعتزلونا ولسنا نحن، كبار الحي ما عادوا يستشيرونك، وشباب الحي ما عادت المكتبة تستهويهم إلا قليلاً.

-كان علينا أن نبحث عنهم ونأخذ بأيديهم.

-أليس ذلك فضول وتدخل في شؤون الناس يا أبتِ

-ليتني كنت أتمتع بخصلة الفضول لكنت حللت المشكل قبل أن يتضخم يا عمر، لا أدري هل نحن من ابتعد أم هم، خلت أني في مكاني الأنسب وهم من عليهم المجيء، لم أنظر إلى الأحوال المتغيرة حولي، كانت الأمور تجري، وكان على أن أستدرك وأوازن هذه السرعة.

-أمور تغيرت بسرعة خاصة بعد تلك المناشير اللعينة...

-نعم، نعم، المناشير كيف نسيناها؟ تلك لبُّ الداء يا بني، كيف أعمتنا الفتنة عن بحثها؟

-سأبحث عن الأمر يا أبتِ، هناك أمور غامضة وجب استجلاؤها.

-على بركة الله يا بني، لا بد من معرفة الخط الأول للفتنة لحلها وعودة الصفاء والهناء.

مضى عمر وحول عينيه بحث حقيقة المناشير، كان يحتفظ بنسخة منها، وعزم على زيارة كل مكتبات المدينة، ليستفسرها حول شخص ما قد يكون أتى لطباعة هذه الجمل القصيرة، درايته بالعمل المكتبي وعلاقاته الطيبة مع أصحاب المكتبات، كانت ستسهل الأمر حتماً، كان العزم متلألئاً في عينيه، وقرر بعد الظهيرة إغلاق المكتبة والمضي في هذا التحقيق، لكن شيئاً ما حدث، وجعل التحقيق له طعم آخر.

عينان مليحتان ووجه بدري، وحجاب متناسق الألوان، أناقة مشي ولطافة لسان، تلك سارة وهي تدخل المكتبة مسلمة على عمر، وطالبة منه تسجيل عضويتها، بل وترجوه مساعدتها في الحصول على كتب معينة، كانت الكتب قيمة، أثارت إعجاب عمر، وجعلته يبادر الجميلة قائلاً:

-لم أعتقد أن الجمال والثقافة يتطابقان كل هذا التطابق!

-لأنكم معشر الرجال لا ترون المرأة إلا في المطبخ أو السرير.

-لا ما قصدت هذا، ما قصدت الاستهانة بالمرأة، فقط الاهتمام بالجمال والأنوثة يستهلك وقتاً، وقد لا تجد جميلة مثلك تهتم بمظهرها وقتاً لقراءة كتاب!

-تبدو مهتماً بجمالي ومظهري، يا صاحب الكتاب المقلوب.

قالتها سارة وعلى محياها ابتسامة فريدة، ضحك عمر وضرب يديه معاً حتى أثار فضول بعض القراء، ثم تمالك نفسه وقال:

- ولمن يحتشم الجمال في لبسه اليوم؟ هل للمكتبة أم لصاحبها؟

-للمكتبة طبعاً، أما صاحبها فدوره ينتهي بإعطائي الكتب التي أردت دون زيادة أو نقصان.

كان الجواب كصفعة مدوية استفاق لها عمر، لقد ضُرب كبرياؤه، وزُلزل كيانه، لكنه استجمع ثقته، وقال بابتسامة:

-سآتيك بالكتب التي طلبت، فحبذا لو تلتحقين بمكانك أيتها الآنسة.

-حسناً، تصبح أشد جاذبية حينما تغضب.

قالتها سارة وعلى وجهها ابتسامة مكر، واستدارت لتترك عمر في حيرة من أمره، عجيب أمر هؤلاء النسوة، قلوب الرجال بين أيديهن ككرة مضرب، يبعدونها تارة ويتلقفونها تارة أخرى، وإذا هام عقلك متابعاً لقلبك الطائر كالكرة جيئة وذهاباً، فإنك حتماً ستجن.

جاءها عمر بالكتب التي طلبت، وأخبرها بأنه سيغلق المحل بعد الظهيرة لقضاء أمر يهمه، تكلم بكلمات قصيرة رسمية وجافة، وبدت نظراته قاسية، أدركت من خلالها سارة أن الشاب قد زلزل، وأنه فعلاً كان يريد جواباً غير الذي قالته وهي تصده، هو يريد الآن رد اعتباره، ليحصن عواطفه بقيادة العقل والحكمة، لم تكن سارة لتترك له مجالاً للاستدراك، وجدتها فرصة للانقضاض بسهام العاطفة والأشواق.

كانت ترمقه وهو يستعد لإغلاق المحل، نهضت بعد أن غادر كل من في المكتبة، جاءت عنده، واقتربت، وقالت وهي تتأمل كتباً حُطَّت بقربه:

-أود معرفة المدينة، ولن أجد شاباً أثق فيه مثلك يا عمر!

نطقت اسمه، فتزلزل كيان عمر مرة أخرى، بحث عن عينيها، فوجدها قد أخفتهما بحياء جذاب، زاده لوعة، جميلة كهذه تدعوه لمرافقته، هل يصدها، هل يصد الجمال إن جاءه مستعيناً، قاصداً مستكيناً؟ ولكنه البحث يا عمر، البحث عن صاحب المنشورات! إنه الواجب يقيدني وهذا الجمال

يؤلبني، ولكن يمكن الجمع، الجميلة تريد معرفة المدينة، والمهمة تقتضي المنحى نفسه، إذاً لا إشكال.

أطال عمر في سؤال نفسه ومشاورتها، وجدته سارة مسلوباً، شُلَّ عن الكلام، فخالته يرفض مساعدتها، أحست بنوع من الذل والانكسار، تأبطت حقيبتها، وهمت نحو الباب مغادرة، لكن صوت عمر استوقفها:

-إلى أين يا ...

أدارت وجهها، ورأته يحاول البحث عن اسمها في كناش بالقرب منه، أدركت أنه يمثل، يمثل دور الناسي للاسم، فقالت بحنو:

-سارة.. اسمي سارة اسم لن تنساه في حياتك أبداً...

تساقطت أوراق كانت بين دفتي الكناش من يد عمر وهو يلمح نظرة الإغراء، ويسمع صوت الإغواء، ابتلع ما في فمه من ريق، لاحظت الحَرقدة في عنقه بين صعود وهبوط، فعلمت أنها أصابت شهوته، وأن القلب في الطريق، وأن العقل سيتعطل حتماً حينما تدنو الأجساد ببعضها معلنة بداية الحريق...

****

رفقة مع الجمال

التحقيق...

استفاق عمر من جحيم القبل وهو يردد هذه الكلمة، كانا معاً خلف رفوف المكتبة، أمسك بذراعي سارة وأبعدها عنه برفق، نظر في عينيها فوجدهما تشتعلان إغراءً، أبعد وجهه عنها كي لا يعاود التوهان وقال:

-عليّ الذهاب يا سارة...

-تحقيق؟...

-سأشرح لك لاحقاً

اقتربت منه وأبعدت يديه المرتجفتان اللتان كانتا تحاولان إغلاق أزرار القميص المفتوح، وتولت هي بعده المهمة، أمسكت بالأزرار تدخلها بدلال وتغنج وتقول:

-في الطريق تخبرني أليس كذلك؟

-حسناً، حسناً، فلنسرع قد يغافلنا أبي ونحن في هذا الموقف المشين.

ضحكت وانتبهت إلى شعرها فهمّت تصلح حجابها المتساقط، واعتدلت وقالت:

-هيا بنا أيها الصالح في الأنوار، الشقي في الظلمات.

امتعض عمر لهذه الجملة، نظر إلى وجه سارة فوجدها تتفوه بما قالت على سبيل الدعابة، فأجاب بضحكة، وحركة تلقائية من يده التي لامست رأسه، معلنة إحساسه بنوع من الحرج، وربما الندم والعتاب. ثم استدرك وقال:

-تسبقيني عند نهاية حينا وهناك نعاود اللقاء.

-لماذا هذا الخوف؟ هل تخاف المشي مع فتاة؟

-بل هو الاحترام يا سارة، احفظي هيبة الشاب ابن الشيخ خالد، الذي اختل ميزانه أمام جمالك.

-أحفظها العمر كله إن أراد.

-إن شاء الله.

قال عمر جملته الأخيرة بعد أن نظر إلى الأرض، وكأنه يخاطب قلبه، يا حسرتاه على الذي عملت يداه وشفتاه؟ وأي مستنقع للشهوة قد تورطت قدماه؟ ومن هذه التي هدمت جبل الورع لديه؟ إنها فاتنة وما يصبر أمام

جمالها إلا القليل، إنها الفتنة جاءت وعانقتني، إنها الدنيا جاءت وضمتني فأصمتني عن الحق، لا أسمع إلا حفيفها الأفعواني، ولا أرى إلا ثوباً داخلياً بلونه الأرجواني، أنا لست ما كنت قد تغيرت في ثوان... يا الله رُحماك.

وجدها تنتظره عند مخرج الحي، فتمشيا معاً دون كلام، وكأنهما معاً كان يرتبان أفكارهما، كلماتهما، بل حتى إشاراتهما الموازية للتعبير، وفي لحظة ما، أمسك عمر بيدها، أوقفها، أدارها نحوه، وبقليل من القسوة خاطب عيونها قائلاً:

-من أنت ومن تكونين؟

نظرت إليه في تحدٍ، وأجابته:

-هل أنا مخيفة مبهمة إلى هذا الحد؟

-لا ولكن ما أعلمه اسمك، ومجيئك للحي وشراؤك للمنزلين، ثم... اعلمي هذا وضعيه في ذاكرتك، أنا لست عقاراً قابلاً للشراء...

ضحكت سارة ضحكة طوت لها جسدها الرشيق، وكادت أن تسقط لولا أنها تمسكت بمعصم عمر، ثم استجمعت أنفاسها وردت:

-هل تمازحني، لم أعلم أنّ مثقفاً وذكياً مثلك يساوي نفسه بالعقارات! وحتى لا تتعب عقلك كثيراً كي لا تجن بسببي، أنا سارة كبرت بالخارج،

وتعلمت هناك فنون التجارة والتسويق، وأصولي من هذه المدينة، أبي غادر مدينتكم هذه منذ سنين خلت، وكان حلمه الوحيد العودة إلى مدينته والاستثمار فيها، لم يتحقق الحلم، توفي والدي، وإكراماً له بعت ما يملكه من عقار هناك، وجئت إلى مدينتكم أستثمر فيها، فهل ارتكبت خطأ في هذا؟

أما أنت... واختياري لك، فسببه الارتياح، اخترتك من بين كل من أراد مودتي مذ وطئت قدمي أرضكم، إن كنت محافظاً متديناً، هذا لا يهمني، يكفي أن تقول لي لا أريدك فأبتعد عنك بكل سهولة.

أصغى عمر باهتمام إلى كلامها، كان يراقب كل ملامح وجهها، وحركات يديها، فالتمس في كلامها صدقاً، وتكنف قلبه نوع من الارتياح، وقال كلاماً ممزوجاً بتنهيدة:

-ليس لدي ما أقوله لك سارة إلا مرحباً بك في مدينتك

-ممم وأيضاً؟

-جواب ما تبقى اتركيه للأيام، وتعالي أريك المدينة، ستتعبين اليوم تعباً، وتتمشين مشياً، لم يسبق لك أن عرفتهما.

-حسناً وهل ستنسى تحقيقك؟

-آه، لا بل نتفسح ونحقق معاً.

-وما طبيعة التحقيق؟

-قبل مجيئك، وقعت أحداث عظيمة في حينا والحي المجاور، أظنك سمعت بها.

-نعم أخبروني أن سبب بيع المنزلين، مشاكل وقعت بين ساكني الحيين.

-أصل المشكل هو مناشير ألصقت من قبل مجهول في أحيط الحيين معاً، وأنا الآن سأبحث في أي المكتبات تمت طباعة تلك المناشير.

شردت سارة قليلاً، وأسرت في نفسها قولاً: وهل تعتقد أيها الأحمق بأنَّا أغبياء مثلكم لهذه الدرجة؟ استدركت سارة وهي تسمع عمر يجدد خطابها ويستفسرها عن شرودها:

-سارة ما بك، أراك سافرت في تفكيرك...

-لا يا عمر، فقط أفكر في الذي سولت له نفسه أن ينشر تلك المناشير، وأي مصلحة له في نشرها؟

-الدنيا مليئة بالمفاجآت والشياطين يا سارة، هلم بنا إلى تحقيق قد يدوم أياماً، لأننا لن نستطيع مسح مكتبات المدينة مشياً في يوم واحد، هل أنت مستعدة للمشي بُعيد كل ظهيرة؟

ردت عليه بحماس وهي ترفع شارة التحدي:

-نعم مستعدة هيا بنا يا أيها القائد.

تأملها عمر، وتحمس هو الآخر، فالجمال يحمس البحث والتحقيق، لكن في بعض المرات يكون للجمال أدغالاً ومتاهات وكواليس لا يعلم بها إلا الله.

****

السكير المتلصص

خرج شاب فارع الطول من مكتب أحد الموثقين، كان الشاب يتبختر بجسمه الرياضي في ممشاه، ينظر إلى ذراعيه بين الفينة والأخرى، يتحسس صدره، ويتأمل ظله، كان الظل يخونه بعض المرات ولا يعطيه هيئته التي عليها، فيتأفف ولا تريح غصته إلا مرآة، أو واجهة محل زجاجية تعيد له حجمه الحقيقي الذي يرتاح له، فيقول نعم هذا هو ‹‹سليمان››، ضغط بقبضة يده حتى كاد يمزق عقود الشراء التي في حوزته، استدرك، وعاد ليصلح الورقتين، بل وتأمل ما كتب فيهما مجدداً، إنهما عقدا شراء الدارين بحي الصفاء.

-لقد فعلتها ولست وحدك من يفعلها يا سارة، فمتى اللقاء والخلاص من هذه المهمات اللعينة.

قالها بحماس وهو يتأكد من فراغ المكان من الناس، ولما تيقن من الفراغ، وأن المكان خال له وحده، أخرج قنينة خمر، شرب نصفها دفعة واحدة، ثم تركها أمامه، وأخذ ينظر إليها، ثم استرسل في الكلام وكأنه يخاطبها:

-أتعلمين أيتها القنينة، لا يعجبني هذا النموذج البطيء الذي يسير عليه آباؤنا العجزة، والذي توافقهم عليه سارة، لا بد من البت، لا بد من تسريع الأمور، التريث والانتظار يفقدني أعصابي، هناك عراقيل نجتثها من جذورها ونرتاح، لم لا يتركونني أقتل بصمت، وبلا أثر.. أقتل هؤلاء الحمقى صلاح، خالد، وذاك الابن عمر، آآآآآآه سارة، كيف وافقت أن تمثلي دور الحبيبة لذلك الوغد، لعلك تغرينه الآن بعينيك، بجمالك، آآآآآه ما هذا الغبن الذي وضعني فيه الآباء، صرت كالمجنون أكلم نفسي، لكن سأرد الصاع عليك سارة، سأقنع زوجة صلاح بالسقوط في شباكي، وهكذا نتعادل، إنها خطة الآباء، فهذه بتلك.

رفع القنينة عالياً، ثم عاود شرب ما فيها حتى لم تتبقَّ إلا القطرات، التي أضحى يستجديها النزول، وصاح عالياً:

-في صحة الآباء والأجداد، في صحة من عادوا من الشتات، نحن نلتم تعالوا، تعالوا ...

ما كاد يكمل المخمور كلامه حتى سقط على الأرض في سبات عميق، لم توقظه منه إلا إشراقة يوم جديد، نهض متكاسلاً، تفحص جيبه الذي فيه العقود، ثم اعتدل، وهو ينفض عنه غباراً التصق بملابسه، نظر إلى الساعة ودونما التفات حوله، مضى مسرعاً مهرولاً، وكأنما سيفوته شيء مهم.

ها هو ذا، يتقفى أثرها كمجرم، يتلصص على أنفاسها، يتقرب ليتنسم عطرها، ويعد خطواتها، كيف تتصرف إذا عوكست من قبل مشرد أو مجنون، بل كيف تبدو إذا قابلت عموم الرجال في طريقها، هل عينها في الجهات سباحة، لماحة؟ هل بالضحكات والكلام صداحة؟ هل جمالها يغريها للسفور والعربدة وقد غابت بعيداً عن أنظار زوجها؟ هل تخضع بالقول، أم أنها تقابل الناس بفتور؟

-معقدة هذه المرأة، أعطوني مهمة إخضاع وإغواء معقدة عقيمة، ليت عمر ذاك مثل هذه الصخرة المتحركة...

كان هذا رأي سليمان الذي أمضى بضعة أيام يتتبع زوجة صلاح، لعله يجد منفذاً ما فيوقعها في شباكه، كانت ‹‹فاطمة›› زوجة مثالية مخلصة، تظل على حالها ومشيتها مذ تغادر عتبة بيتها حتى تصل مكان عملها، عيون في الأرض مغروسة، وآذان تتحسس الطريق وتميز، وتتفادى الأحمق والشريد، تتفادى الكل، كأن لم تسمع لقولهم ولا لمعاكساتهم، تلك المعاكسات التي ما عادت في أرجاء المدينة تفرق بين زوجة محترمة وبين الغواني بائعات الهوى، كانت تحس ببعض الخوف وهي خارج حيها الراقي المعروف، أو الذي كان معروفاً بنبل وشهامة سكانه، هذا طبعاً قبل أن تلمح فيه تغيرات في الآونة الأخيرة، فطليقات حي الهناء بعد أن استخدمهن الحانوتي يحيى، أضحين يعملن بملابس لم يعهدها سكان الحي قط، الأغلبية تقبلت الأمر

على أنه ترسيخ للانتقام من سكان الحي المناوئ، لكن زوجها صلاح كان له رأي آخر، يوافقه فيه مجموعة من الحكماء وعلى رأسهم الشيخ خالد وابنه عمر.

كانت فاطمة تجل زوجها وتحبه، وهو الآخر كان يبادلها الشعور نفسه، رغم أن لا أولاد يسليان هامش الوحدة إن استجدت لغياب الزوج، إلا أن هذا لم يمنع من استمرارية الحب، فصلاح لم يزمع الزواج من أخرى وفاء وتقديراً لحب زوجته الغالية.

أدركت فاطمة واقعياً أن الأمور كما قال زوجها، تتغير للأسوء حتى في حيهما، فذكاؤها وفراستها أخبراها، بأن هناك أحد شباب الحي يتبعها يومياً من الحي إلى حيث تعمل، لا تعرف هذا الشاب ولم تره إلا في الآونة الأخيرة، سوء الخلق هذا جعلها تطيل التفكير كثيراً، ها هو ذا مرة أخرى هناك في تلك الزاوية ينتظرها كما فعل منذ بضعة أيام، كانت لفاطمة قدرة عجيبة في مسح المنطقة بعينيها في لحظة سريعة، حياؤها منذ الصبا ولَّدَ هذه الخاصية العجيبة، فهي تراك، لكنك لا تعلم متى رأتك وكيف رأتك؟

هذا أمر غاب عن سليمان المترصد، والمتصيد هناك، خال أن فاطمة لم تعلم بوجوده قط، وكعادتها خرجت من المدرسة، فتتبعها لعله يظفر بمنفذ إلى قلبها، إلى عقلها، إلى جسدها، أو حتى إلى ذاكرتها، أن يكون وجهاً مألوفاً

تلمحه عيناها، في نظره خطوة أولى نحو تحقيق المراد، لعله كان مزهواً بوسامته، وجسده الرياضي، وأراد أن يستثمر ذلك تقرباً ودنواً من فاطمة، ظل يتبعها، ورآها وهي تدخل إحدى المكتبات في ذلك الشارع الطويل، لكن شيئاً ما شدَّ انتباهه وجعله يفرغ فاه، بل وجعل قلبه يخفق طرباً، نسي أمر فاطمة وسارع الخُطى، سارعها نحو فتاة شقراء جميلة تقف غير بعيد عن المكتبة نفسها...

****

اللكمة

كان عمر في إحدى المكتبات، وقد اعتبرها المكتبة الأخيرة في سلسلة المسح الذي قام به بمعية سارة، التي كانت تقف بالخارج تنتظره، "لا أحد جاء أو طبع منشوراً به جملة واحدة كهذه منذ الأسابيع الأربعة التي مرت"، هكذا كان رد أغلب القيمين على مكتبات المدينة، وبهذا رد كذلك صاحب المكتبة الذي أمامه عمر، فطبع جملة وحيدة كهذه حتى وإن كان الوقت طويلاً للسؤال عنها، إلا أن طبعها كان سيلفت انتباه من يطبعونها حتماً...

"الأمر ليس لعب هواة"... أسرها في نفسه عمر وهو يشكر صاحب المكتبة، وقبل أن يغادر رأى سيدة بالكاد دخلت، سيدة عليها وقار، إنها فاطمة زوجة السيد صلاح، إنه يعرفها فقد درست معه في الثانوية قبل أن تتزوج، غرس عينيه في الأرض احتراماً لها، دون أن ينبس بكلمة، فقد كانت هذه تحية أبناء الأصول الذين يقدرون ويحترمون زوجات الآخرين، رمقته فاطمة، وحمدت ربها سراً، ان عمر ابن الشيخ خالد لم يتغير هو الآخر، لكن في لحظة رأت الشاب العفيف قد تسمر بالقرب منها، وكأنه ينظر لأمر غريب، حثها الفضول إلى معرفة الوجهة التي ينظر إليها، رأته وهو يحدق خارج المكتبة في تلك الفتاة وقد وقف إلى جانبها شخص آخر...

عليه اللعنة، إنه الشاب ذاته الذي كان يتتبعها، رأته وقد أقبل على فتاة شقراء جميلة، أقبل عليها وكأنه يعرفها، لعلّه يعرفها، بل يعرفها، هذا ما رأته العيون وما حلله إدراك فاطمة وعمر معاً، لكن الباب الزجاجي للمكتبة كان مغلقاً، ولم تتضح الكلمات، ما بدا يتضح هو فقط وجه سارة المنزعج، كانت تعض على شفتيها، وتحاول تفادي هذا المتطفل.

تتفاعل غيرة عمر مع حكمته الآن، لم يستبِن الأمر بعد، هل سارة تعرف هذا الشاب، عيونهما تخبران أن الواقفين خارج المكتبة يعرفان بعضهما طويلاً، لكن يد وجسد سارة كمن يريد التخلص من هذا الشخص الواقف أمامها، أمر لم تؤكده إلا حوقلة لفاطمة أتبعتها بكلام:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، شاب سيئ الخلق لا يفرق بين متزوجة ولا عازبة...

هذا ما كان ينتظره عمر، البينة، فهم قول فاطمة حتى بدون أن يسألها ويطلب مزيداً من الشرح، هذا شاب حقير، يعاكس النساء، لا هم له إلا هذا... انطلق عمر كما الثور، فتح الباب، وبسرعة البرق أمسك الشاب من قميصه، وعاجله بلكمة أسقطته فوراً بالرغم من ضخامته، خرَّ سليمان مغشياً، ولم تبقَ إلا سلسلته الذهبية في يد عمر، كانت صدمة الضربة

قاسية، غضب لها، وكاد يقوم ليرد الإهانة، لولا أنه فكر أن نهوضه للرد قد يفسد خطة الآباء كلها...

-اعتذر لقد شُبهت عليّ بفتاة أخرى أعرفها...

هكذا خاطب سليمان ضاربه، وهو يحاول النهوض، أقبل نحوه عمر ليعالجه بضربة أخرى، لكن يد سارة أمسكت به بكل قوة، بل بوحشية، وحشية جعلته يستغرب هذه القوة، إنها قوة المحبّ حينما يخاف على من يحبّ، نظر إليها فرأى فيها عدوانية نحوه لم تستطِع إخفاءها، فراسته أخبرته، أنّ وراء هذا الجمال غموضاً، القلادة التي في يديه، بالكاد أحس بوجودها، فما تحوزه من دلالات أو حروف آلمت بطن يديه المنقبضة، فتح يده فوجدها فُتحت على حرفين لاتينيين يفصلهما قلبٌ ذهبي، كانا الحرفان متشابهين متطابقين، حرفا **s**، رمى بالقلادة نحو الشاب الذي بالكاد نهض، تأمله بحرص، وحذر، هل يدافع عن نفسه ويرد الضربة، أم لا؟

تلقف الشاب القلادة، ومضى يراوغ أكتاف أناس جمعها الفضول لمعرفة ما يحدث، سمع عمر كلام امرأة وراءه تقول:

-بوركت قد نال ما يستحق، حتى لا يتتبع زوجات الناس ولا يعتدي على البنات ويعاكسهن...

كانت كلمات فاطمة، بمثابة تبرئة لعمر أمام حلقة الفضوليين الذين جاؤوا لمعرفة ما يحدث، استحسنوا الفعل، وأشادوا به، ومنهم من فضل الصمت، أما عمر فشكر بإيماءة رأس وانحناءة زوجة السيد صلاح، ثم انصرف دون أن يلتف إلى فاطمة، ربما احتراماً لتلك الزوجة أمامه، أو ربما حنقاً على ذاك الوجه الغريب الذي برزت به سارة، وهي تحاول رده عن توجيه الضربة لغريمه مجدداً...

سارة هي الأخرى كانت تحتاج إلى هذا الهامش من الصمت، فتحركت بعد عمر تمشي وراءه، وتركت بينه وبينها أمتاراً، لم تكن تستعجل الخُطى، كانت تسأل نفسه هل انكشفت الخطة؟ كانت تلوم نفسها وتلوم سليمان الذي حطها في هذا الموقف، هي تعلم أن سليمان حينما يراها أو يرى قنينة خمر أمامه يعمى، يفقد التفكير، مع أنه ذكي محترف، إلا أن نقطة ضعفه سارة والخمر، فالخمر وجد لها حلاً بشربها لوحده، دون رفيق، حتى إذا خاطب لا يخاطب إلا نفسه، ولا يبوح ما في صدره لأحد، أما هي فحينما يراها يفقد عقله، ولعله تماسك ولم يرد الضربة، وكان قوياً في لجم عاطفته، لكنها فشلت، هي تعلم أنها ظهرت بعاطفتها، ومالت نحو حبيبها تنقذه من ضربة أخرى، لكن هل تراه عمر بهذا الذكاء ليلمح هذا الجانب؟ ربما هي فقط الغيرة أو الغضب من جعلاه ينصرف هكذا دونما النظر إليها أو

مخاطبتها؟ تساؤلات وتحليلات كانت تدور في خلد سارة، وهي تراقب عمر وتنتظر منه أن يلتفت اليها.

****

اعتراف

ها هي ذي تراه وقد توقف عند واجهة محل من المحال، توقف ينظر إلى شيء ما، ثم إنه التفت نحوها وهي قادمة صوبه، كانت نظرته إليها قاسية، لكنها نظرة سرعان ما تلينت بابتسامة أشرق لها وجهه، تسارعت خطوات سارة، فتلك الإشراقة أجابت عن جميع التساؤلات، وأعطت جواباً واحداً، عمر تعامل بغيرة العاشق ولم يكتشف شيئاً...

وهي تصل إليه مفعمة وتبادله ابتسامة ود، خاطبها بدون مقدمات وهو ينظر إلى واجهة المحل:

-إنها القطة التي أعجبتك البارحة، قد اشتاقت إلى نظراتك...

-آه قطتي... ما أجملها وكم أحبّ القطط وتربيتها، أخبرتك أني قبل المجيء أهديت قطتي إلى جارتي هناك خارج البلاد، كانت نسخة من هذه القطة البيضاء...

-هيا بنا قد تأخر الوقت، وأعتذر إن تصرفت بعنف أمام ذلك الموقف

-لا عليك ما كان عليك التصرف هكذا، شاب أخطأ فخالني إحدى معارفه...

-لا بل هو يستحق تلك الضربة، لأنه يعاكس الفتيات وحتى النساء المتزوجات...

-النساء المتزوجات؟ هل تعرفه من قبل؟

-لا فقط المرأة التي كانت بالمكتبة أخبرتني أنه كان يضايقها بتتبعه لها.

-المرأة... آه تذكرت، كأنها تعرفك، وقد جاءت وشكرتك، في نظراتها...

-لا تكملي رجاء... المرأة متزوجة، درست معي في مرحلة ما، وهي خلوقة ونعم النساء هي...

-وهل أنا ماجنة مائعة؟

-ومن قال هذا؟ لا تُقَوليني ما لم أقله.

-على أي من تصاحب عمر ما من طريق أمامها إلا الانهزام أمام رجولته ووسامته.

-بل أنا من انهزم أمام جمالك، لم أكن أعتقد أني سأنتقل من التعفف إلى القُبل، وإلى ما وراء القُبل، تلك المكتبة التي كانت تشهد علماً، صارت رفوفها تشهد فسقنا أيتها الفاتنة...

-كأنك غير راضٍ...

-الجسد راضٍ والضمير نادم، لكن سأصلح خطئي يوماً ما، فقد تماديتُ يا سارة... حبك أعماني...

-قلت حبك؟ أو صرت تحبني؟ أم لعلها شهوة جسد عابرة؟

-لا أعلم ولكن شيئاً ما يحرك دواخلي نحوك، ليس الجسد وحده من يتحرك بل الفكر كذلك انشغل، صار شريداً عربيداً في عينيك.

-تجيد الغزل يا غيور.

-أسرعي في سيرك فالظلام أشرف على احتضاننا، واحتضان هذه المدينة، أريد أن أفرّ من ظلام يجمعني معك، فالظلام معك جريمة، فلن أجد نبراساً فيه إلا عينيك، وعيناك أعلم إلى أي طريق ستقودانني إليه، طريق كله منحدرات ونيران...

-غيور وجبان في بحر الحبّ...

-لا يسلم في الحبّ إلا الجبان الذي لا يتخطى شطآنه، فأعماق الحبّ تغرق العاشقين وتضنيهم، فمهما سبحت وكنت غواصاً، فالتعب سيكون مصيرك، وحينما تتعب أرجل، أيدي وأفكار العشاق... يغرقون.

لم تفارق سارة مراقبتها لعيون عمر حينما كان يتحدث، كانت تستنبط صدق ما يقول، أدركت أنه لا يمثل، بل ما يقوله نابع من دواخله، لقد أغرم الساذج، وفي عشقه غرقه، ابتسمت ابتسامة مكر خالطتها بابتسامة رضا، حتى لا يحس المفتون بشيء، كذلك أحس عمر بأنّ العينين اللتين تراقبانه، صدَّقَت أقواله، لقد ظهرت نتيجة النجاح، وها هي ذي تقترب منه، لتصادق على أقواله بالقبول والتصديق، احتضنها ورفع رأسه إلى السماء، الجسد يعانق والفكر مفارق، كان تفكيره يتطلع إلى أمر ما، ولم يكن يعيش راهنية اللحظة ويتمتع بها...

****

خطة القطة البيضاء

‹‹عباس››...

هكذا نادى عمر وهو يتأمل أكياساً من الأزبال قد بعثرتها القطط أمام بيت صديقه، كان يعلم أن هذا الصديق لا يملك وقتاً لمراقبة المحيط، فهو في انشغال دائم في اختراعات وبحوثه، فعباس لا يعرف غير عمر خلا، والمكتبة هي المكان الأمثل التي جعلت الشابين يكونان صداقة منقطعة النظير، عباس ملم بكل أمور العلوم والتقنيات، بل ومتقدم فيها إلى أبعد حدود، انصهاره في أبحاثه، وابتعاده عن ميولات الشباب، أكسبانه هذه القدرة، جعلانه يصل إلى اكتشافات لو عرضت على العموم للقيت صدى وإشادة، لكن عباس لا يريد شهرة ولا ظهوراً، يسمي نفسه المخترع الزاهد، يخاف أن تكون تقنياته واختراعاته مجلبة للمشاكل بالنسبة إليه، ومعرضة له للسجن والمساءلة، فقصص سابقيه الذين قتلوا أو سجنوا لاختراع أو اكتشاف، جعلته يحجم عن الظهور، ولا يكاشف آخر صيحاته إلا صديقه الوفي عمر.

عمر بالنسبة لعباس لهو نعم الأخ، عوضه عن الأهل الذين فارقوه تباعاً، فالأم التي كانت نعم الملاذ لعباس، توفيت العام الماضي، ومن يومها وعمر

يأتي كل يوم ليُعين عباس على تنظيم شؤون حياته، من أكل وشرب ولباس، يعلم أن أبحاثه تأخذه بعيداً، لدرجة أن ينسى بعض المرات إعداد فطوره أو غذائه...

-عباس ارمِ لي بالمفتاح فقد نسيته ولم أحمله معي.

يطل عباس من نافذة علوية، بشعر أشعث ولحية غير ممشوطة، وكأن هذا الإنسان لم يرَ الحلاق منذ شهور خلت! أطل من نافذته ليجد عمراً منهمكاً في جمع الأزبال التي بعثرتها القطط.

-لا، لا ماذا تفعل يا أخي عمر؟

-ارمِ المفتاح وكفاك نحيباً نحن إخوة، وهذا فضل الأخ على أخيه...

رمى عباس بالمفاتيح وهو يقول:

-دائماً تحرجني كنت نازلاً للتو لجمعها...

-نازلاً للتو؟ ما أراك كنت في عالمنا قط، ربما كنت في المريخ أو زحل يا عباس...

قالها عمر ساخراً، ليعقب عليه عباس بضحكة مجلجلة، جعلت فضول إحدى الجارات تأتي لتستطلع ما يجري، أخرجت رأسها لترى ونظرت إلى أسفل، لكن عباس قال لها مخاطباً:

-أنا هنا أيتها الجارة لقد أخطأ رادارك هذه المرة...

نظرت إليه الجارة باستغراب، ونعتته بالمجنون وهي تغلق نافذتها بقوة، رد عليها عباس قائلاً:

- وما أصبحنا مجانين إلا من فرط مراقباتكم، أكلتنا عيونكم...

كتم عمر ضحكته بيديه، وأسرع مهرولاً نحو الباب يفتحها، ليدخل ويقي نفسه الإحراج الذي يسببه عباس.

-عباس يا عباس مالك والجارة؟

-أنت ترى فضول هؤلاء الناس، في هذا الحي، أتمنى لو سكنت بحيكم الهادئ.

-حينا الهادئ، الأوضاع فيه تتغير يا عباس، لم يعد حيّا الهناء والصفاء كما كنت تعلم، أما فضول الجيران فأينما ذهبت ستجده، هناك فضول قد يؤذي وهناك فضول قد ينقذ...

-إلا فضول هذا الحيّ يؤذونك بأعينهم قبل ألسنتهم.

-ربما لأنك لا تخالطهم فهم في موقف الحذر منك؟

-جربت مخالطتهم فما وجدتهم إلا نمامين تباعين للعورات، فعدت إلى أبحاثي، وصداقتك تغنيني عن هؤلاء.

-ولن أخيب ظنك ما حييت أخي عباس.

-أعلم يا أخي عمر، لكني أراك على غير عادتك، كأنك على عجل، فمن عادتك دخول المطبخ فوراً لإعداد الشاي مباشرة، اليوم أرى في عينيك مطلباً ما؟

-نعم أيّها الباحث الذكي، جئتك بخصوص تلك الكاميرا التجسسية...

ابتسم عباس وهو يحك شعر رأسه وقال:

-ما عهدتك متجسساً، فأي شيء استجد معك؟ وأي شيء تخفيه عني.

-تلك الفتاة الجميلة التي أخبرتك عنها، أريد معرفتها من تكون بالضبط؟

-تريد التجسس على فتاة...

-لا، لا تذهب بعيداً، لست أقصد الذي ذهبت إليه مخيلتك.

-أنت تعلم الكاميرا التي طورتها هي عبارة عن قلادة لا يمكن تمييزها ولا الكشف بأنها كاميرا تجسسية، وهذا يعني أنّ عليك إهداءها لفتاتك، وتلك القلادة جمالياً ليست بذلك النوع الذي يُعطى لفتاة بارعة الجمال كما أخبرتني...

-بلى، ولكن سأهدي قلادتك لقطة.

-لا، لا أنت فعلاً صرت تستهزئ بي وبقدراتي واختراعاتي...

أجاب عمر ضاحكاً وقال:

-لا حاشا لله أن استهزئ بقدراتِ أخي وإمكانياته، ولكن إليك القصة وإليك ما أخطط له.

بعد أن أعاد عمر لصديقه عباس ما جرى له بالقرب من تلك المكتبة، وبعد أن شرح له خطته، هز عباس رأسه ودونما إبداء أي رأي، نهض نحو درج مكتبه، فتحه، وأخرج ما طلبه عمر، ومدَّه إليه، وقال:

-"غالي والطلب رخيص"، كما يقول الإخوة المصريون، لقد علمتك سلفاً تقنية اشتغالها فسِرْ على بركة الله.

ضحكا معاً، بل تعانقا، ترجاه عباس للبقاء، لكن عمر اعتذر بكونه لا بد أن يدرك صاحب محل بيع القطط قبل أن يغلق، وذلك لشراء القطة البيضاء التي حدثه عنها.

دخل عمر متأخراً إلى البيت، كانت بين يديه قطة بيضاء جميلة هادئة، وضعها على طاولة بغرفته، فتح قلادتها الأصلية، وعوضها بتلك التي تحمل الكاميرا التجسسية، راح يسرع الخُطى نحو حاسوبه، ثبت برمجة الجهاز في حاسوبه، وأطلق البث التجريبي... وصاح بحماس قائلاً:

-رحم الله اليد التي ربتك أخي عباس.

دخل أبوه الشيخ خالد، تأمل حماس ابنه عمر، وتأمل القطة، وسأله قائلاً:

-ما سر هذا الحماس وما سر هذه القطة بني؟

تفاجأ عمر بدخول الوالد، تلعثم وهو يحاول الرد، لكن الأب استرسل وقال:

-لن أضغط عليك لأجعلك في موقف تكذب فيه على والدك، فأنت تشبهني لا تجيد الكذب، لهذا انسَ أمر حماسك وانسَ أمر القطة... واعلم يا بني أن الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة، فتخيرها طيبة، ولا تعجبنك خضراء الدمن، حاذر مواضع قدميك، وإني لأعلم خطواتك من غير تتبع لك ولا رصد، فعيونك كلماتك، وتصرفاتك كتاب مفتوح لي، اعلم به هل

هذا كتابي الذي ألفته وربيت، أم هو كتاب آخر قد زور الشارع معانيه وحور...

-وكيف تجد الكتاب هذه الأيام يا والدي؟

-تكاد بعض أوراقه تتمزق، هناك رياح فتنة تجتاح صفحاته، وماء شهوة يكاد يغير معاني الكتاب السامية، لكني على ثقة بالكتاب، وعلى ثقة بعمر ابني... حياتك هذه تصرف بها بما شئت، قد ربيتك مذ كنت صغيراً، وأرشدتك كبيراً، وهأنذا أذكرك وأنت في سن الثلاثين، فاختر طريقك بنفسك.

-ستفتخر بي أبي أعدك، وسأصلح ما أخطأت يداي.

-ستفعلها بني، ولن أهدَّ جسر الثقة بيني وبينك أبداً، في رعاية الله، ولا تنسَ إكرام القطة، فهي ضيفة لا أراها ستطيل المقام، وقم غداً بالمرور على السيد سعدان فقد عاد إلى مناطقنا، واتخذ من ساحة المسجد ملاذاً.

قالها الشيخ وهو يبتسم، واتسعت عينا عمر، فأبوه كأنه مقيم في قلبه، ومتكئ فوق آرائك دماغه، يحيط بما يفعله من غير ترصد ولا مراقبة، فراسة الوالد كانت قوية، ولطالما توسل عمر أباه بالبوح بكل ما يجول في عقله الثاقب، لكن الوالد كان يأبى البوح، بحجة أنه لا يريد أن يظلم أحداً، هذا التريث وهذا التردد، كان يراه عمر جموداً وإجهاضاً كبيراً للفكر

الرصين الموازي للدين، المفحم للمتربصين الذين يتربصون بالثغرات ويعزفون على النعرات والتفرقة، كان عمر ينتقد نقداً ليناً هذا الانتظار، الذي وضع فيه فقهاء كمثل أبيه أنفسهم فيه، فيما العالم من حولهم يفكر ويبدع، ويكتب كل ما يعتمل في الصدور، كان الشيخ خالد يستحسن هذا النقد البريء الهادف، لكن من غير أن يتبناه، بل كان يقول لابنه:

-هذا جيلكم جيل المعرفة الفياضة الخلابة، المعرفة المارقة الحراقة، وإنا نحن جيل رباكم، توارثنا على الأجيال التي سبقتنا الحفاظ والمحافظة على ثوابتنا بالشد عليها بالأيادي، بالنواجذ، فإن كانت نواياكم خدمة لهذا المبدأ، ووجدتم أن غير النواجذ والأيدي تُجدي نفعاً في الحفاظ على تلك الثوابت في النفوس، فتلك طريقكم اجتهدوا فيها، وهاذي طريقنا التي عليها تعلمنا ونُعلم، ولكل امرئ ما نوى، فقط الثوابت، الثوابت، لا تتركوها ولا تفرطوا فيها قيد أنملة.

مضى عمر مفكراً في حديث والده، ثم انتبه إلى مسألة إكرام القطة، فهب ليسقيها ماء وليجد لها طعاماً، وهو كذلك إذ تذكر اسم «سعدان» ذاك الغني من أعيان حي الصفاء، الذي قيل إنه أصابه الجنون بعُيد ليلة الهجوم بالبيض الشهيرة، بعد أن وقعت له صدمة نفسية إثر السرقة التي تعرض لها، ترك الحي شهراً كاملاً، بعد أن باع أهلُه المنزل، وها هو ذا يعود إلى الحي الذي نشأ فيه، هل هو الحنين، أم هناك أمر آخر جاء به؟

كلامٌ مقفى

سمعت طرقاً على الباب، تفاجأت فهي لا تقيم علاقات مع سكان الحي إلا مع أبيها وعمر، فتحت الباب، فوجدت قطة بيضاء جميلة، انتاب سارة فرح كبير، إنها القطة نفسها التي رأتها عند ذلك المحل، لا بد وأنه عمر من فعلها، أخرجت رأسها من عتبة الدار تنظر يميناً وشمالاً، فرأته هناك يبتعد عنها أمتاراً، دعته للدخول، فأشار برأسه بالرفض مبتسماً، ثم غادرو وهو يجري، أو لعلّه فر من إغراء يسلب العقل ويشله، يسكره ويُنيمه، ويجعل الجسد في لجة الشهوة من حيث لا يدري، وإلى أن يستفيق العقل يجد الأوان قد فات.

نظرت إليه مبتسمة، وأحست بقشعريرة في كيانها، لا يا سارة لا تهزمنك العاطفة، العشق سليمان ولا شيء غير سليمان... خاطبت نفسها، خاطبت أحاسيسها، كأنما تذكرها بالمبدأ الذي عليه جاءت، وهو إخضاع العدو لاختراق المكتبة وما تحتها... هذه مهمتها، فلتسقط العاطفة والمشاعر.

مضى عمر مكملاً جريته الصباحية، مر بساحة المسجد، وعند ذلك القوس القديم المهجور تراءى له شخص ما يستعد للنهوض من فراشه، كان أشعث وأغبر، حالته حالة المشردين والمجنونين فعلاً، ذاك هو السيد سعدان،

تساءل عمر في نفسه ما السر الذي يحمله هذا المجنون حتى يهتم بذكره الشيخ خالد؟

-السلام عليكم

بادر عمر بخلق نوع من الاستئناس بالسلام على المتشرد، رد سعدان من دون أن يستدير إلى مخاطبه وقال:

-وتحيتهم فيها سلام.

-هل تذكرني سيد سعدان؟ أنا عمر ابن الشيخ خالد.

-عمر خالد أبو بكر عثمان علي... صحابة رسول الله الكرام.

-رضي الله عنهم أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

هنا استدار سعدان بوجه يشتعل غضباً، وعيون تتطاير شرراً وقال:

-وهل تتبعونهم أم تتبعون أعداءهم؟ داوود بدكان ويحي بدكان، فرعان يرتبطان، يُسرق سعدان، سليمان بالمكان، وأفعى تسيطر على قلبك بحنان...

قال سعدان هذه الجملة المقفاة الملغزة، واسترسل في هستيريا من الضحك، استغرب عمر لهذا الكلام، لكن أحس بأن له حمولة ومعنى وسراً، وأن الأمر ليس كلاماً عابراً لمجنون، كان من الصعب استجلاء المزيد من الإيضاحات،

فنوبة الضحك التي استرسل فيها سعدان فرضت على عمر أن يرمي قلنسوته على رأسه، ويغادر المكان بهدوء.

ابتعد عمر عن سعدان وعن قهقهاته، ما عاد يسمع إلا شيئاً يسيراً منها، إنه الآن بجوار المدخل المؤدي إلى حي الصفاء، طبعاً تغيرت الأمور، وفرضت قطيعة بين سكان الحيين، لا أحد يدخل حيّ أحد، إلا الجامع الكبير هو من تبقى يجمع الأعداء، ولولاه لما تقابلوا قط، تأمل عمر حيّ الصفاء من بعيد، وإذ هو كذلك إذ اصطدم به شاب طويل، كان الشاب يترنح قليلاً، ففقد توازنه ليصطدم اصطداماً خفيفاً بعمر، أشفق من حاله ابن الشيخ خالد، وتمتم له بالهداية، فرائحة الخمرة كانت تفوح من فم الطويل، الذي استدار بوجهه وبإيماءة منه طلب الاعتذار، جحظت عينا عمر ونطق في نفسه:

-إنه... إنه ذاك الشاب... الشاب الذي ضربته عند المكتبة، ما الذي جاء به ها هنا؟

تجمد عمر في مكانه، ثم تحركت رجلاه بغير وعي تتلو الشاب في خطواته، لكن ما إن اقبل عند مدخل الحي حتى خرج له ثلاثة شبان يافعين، وخاطبه أحدهم قائلاً:

-من أنت انزع عنك القلنسوة كي نعرفك؟

تأمل عمر الشباب الثلاثة، إنهم من ساكني حي الصفاء، ثم هَمَّ بنزع القلنسوة عنه، فبدت ملامحه كلها، تدخل أحد الشبان الثلاثة وكان أوسطهم، وقال:

-إنه السيد عمر ابن الشيخ خالد...

قاطع الشاب شاب آخر يوجد عن يمينه قائلاً:

-وإن يكن فهو ابن حي الهناء، وهو عدو لنا.

تدخل عمر ليقطع جدالاً بين الاثنين كاد أن يبتدئ، وشرح لهما أنه يتفهم الوضعية، وأنه فقط بحسن نية، لمح شاباً غريباً عليه حالة سكر قد دخل الحي، فأراد أن يستبين أمره منافحة عن الحي، فهو لا يزال يعتبر الحيين معاً بالرغم ما حدث، يعتبرهما حياً واحداً.

أشاد الشبان الثلاثة بموقف عمر، وشكروه عليه، بل واستثنوه من حالة المنع تلك التي تسري على باقي شبان الحي الآخر، وفيما يخص الشاب الغريب، شرحوا لعمر، أنه ليس بالغريب بل هو شاب مقاول اشترى البيتين المجاورين لمكتبة حي الصفاء، وهو شاب كريم يتعامل بكرم مع شباب الحي كبيره وصغيره، وقد اشترى لهم كرة من النوع الرفيع، وزادهم عليها قمصاناً رياضية...

-شكراً على تفهمكم أيها الشباب الرائعون، وهنيئاً لكم بهذا الوافد الجديد.

-اسمه السيد سليمان.

هكذا نطق أحد الشبان اسم الشاب الطويل على المسامع، رنة الاسم كان لها وقع خاص، جعلت عمر يجدد شكر الشاب، وينسحب من أمام مخاطبيه بتحية شبابية، كان جسده يحاول إيجاد مكان هادئ، حديقة أو مقهى، أو أي مكان يعين على ترتيب الأفكار وتحليلها، فالمشاهد بشكها، وقائعها، وكلماتها أضحت تتوارد بشكل متوالٍ غير منظم على عقله، مشهد سارة وسليمان، شوق عيونهما، حركات شفاههما وهي تنطق خلف زجاج المكتبة، تلك اللكمة... ثم القلادة، نعم القلادة التي أمسكها بيده، بها حرفان متماثلان، يتوسطهما قلب، والحرفان معاً هما بداية اسمي سارة وسليمان، لقد حلت الأحجية الأولى، والشك الذي جعله يقدم على خطة القطة يكاد يكون يقيناً.

ارتاح تحت شجرة من أشجار حديقة خالية، ليحاول تحليل مشاهد وكلمات أخر تستفز تفكيره، "سليمان سمعت هذا الاسم في هذا اليوم مرتين، آه نعم، المرة الأولى كان الاسم يتخلل ما هذى به سعدان المجنون، استعيدي أيتها الذاكرة ما قاله...

كان عمر يتذكر وجه سعدان بغضبه وبجحوظ عينيه حينما قال له:

-وهل تتبعونهم أم تتبعون أعداءهم؟ داوود بدكان ويحي بدكان، فرعان يرتبطان، يُسرق سعدان، سليمان بالمكان، وأفعى تسيطر على قلبك بحنان...

كان عمر يكلم نفسه يسألها ويجيبها، كان يتمتم ببعض الكلمات التي كان يخرجها لتعاود أذناه سماعها، وكأنه يريد من خلال هذه العملية إعادة تدوير المعلومات بتدوير أصواتها ليستجلي في لبه معانيها:

-كلماتك محيرة لكن بها دلالات يا سعدان "داوود ويحي يرتبطان؟ سليمان والأفعى؟ دكان؟ مكان؟ الأفعى إذاً هي سارة، كيف علمت أنها تسيطر على قلبي بحنان؟ أتراك تتبعني يا سعدان؟ لكن ما دخل داوود ودكانه؟ ومن يكون يحي؟ لا أعرف دكاناً في حيّنا إلا دكان داوود"

جحظت عينا عمر، وانتصب واقفاً وقال:

-بلى، بلى، هناك دكان في حي الصفاء واسم صاحبه يحي! أنت لا تهذي يا سعدان، أنت تزرع أشواكاً من الشك تؤتي بعد غربلتها ثماراً... لم أتسرع بقرار مراقبة سارة إذاً، هناك شيء ما أكبر من مجرد إغراء وغيرة عابرة، أكاد ألمح في الكواليس مخططاً لم يتضح بعد، وربما كنت ضحية ضمن هذا المخطط، ولولا أن الله فتح عيني على هذه الوقائع التي رأيت، لكنت مخدوعاً ملعوباً بي... فحمداً لله.

تطلع عمر هناك في الآفاق، وكأنه يريد العودة إلى البيت، إلى المكتبة، ليداوم مراقبة سارة صباح مساء، فهي المدخل الذي به ستتضح جميع معالم المخطط من أوله إلى آخره.

****

نحو الاجتماع

دخل سليمان البيت بجسد يكاد يغالبه الوسن، أقفل الباب وتذكر أنه نسي المفاتيح خارجها، فتح الباب مجدداً وأخرج المفاتيح من واجهتها الأمامية، وأغلقها مرة أخرى بإحكام، ثم حاول نزع حذائه فإذ برجله تتحسس ورقة ما، نظر إليها، وانتشلها بجسد مخمور يترنح، نظر إليها فوجدها رسالة من أبيه يحيي، "الاجتماع الليلة"، هز رأسه، ومر على المرآة، غازلها بغمزة، لكن استوقفته تلك الكدمة التي على وجهه، تفحصها، وتذكر عمر، فعض على نواجذه، وضغط على قبضته، كاد يضرب المرآة من شدة الغضب، لولا أن التعب أثقل ذراعه، فما عاد يرى غير الوسادة ملاذاً، راح نحو سريره وهو يردد غيظاً وحقداً اسم عمر، ظل على ترديده ذاك، وما هي إلا دقائق معدودة حتى كانت الغرفة تهتز شخيراً...

رآها وهي تلتقط ورقة عند عتبة الدار، قرأت الورقة باهتمام، وهزت رأسها، ثم أقبلت تحمل "كاتي"، كان هذا أول مشهد يراه عمر وهو يراقب سارة من خلال قلادة القطة التي سمع للتو اسمها، لقد أسمتها "كاتي"، تحمس عمر وقال بصوت خفيض: هيا يا كاتي، هيا يا أجمل جاسوسة في العالم، افضحي لنا هؤلاء!

كانت سارة تبدو وكأنها تعلقت أيما تعلق بالقطة البيضاء كاتي، كانت تأخذها في أي مكان تخطوه قدماها، في غرفة الجلوس، في غرفة النوم، فوق السطح، بل حتى في الحمام، وكان الحمام امتحاناً كبيراً لعمر، لم يكن يريد أن يراها في وضعية الاستحمام، ورعاً وتقية، فقد استغفر وأناب عما فعل في الأيام الخوالي مع هذه المرأة، التي يعلم كم هي مثيرة وفاتنة، لهذا كان يغلق الحاسوب مؤقتاً، أو يشغل نفسه بشيء يلهيه عن مراقبتها.

تطلع على بعض اهتماماتها وهواياتها في كل ذلك اليوم الذي قضاه في مراقبتها، لا شيء يثير الاهتمام أو الريبة، إلى حدود الساعة، هذه فتاة عادية تقوم بما تقوم به النسوة في خلواتهن، ابتسم لمواقفها، وسخر من هفواتها، أغمض عينيه عن فتنتها، فقد كانت تغير ملابسها بملابس أخرى، ثم بعد دقائق، فتح عينيه على الحاسوب مرة أخرى فوجد سارة بملابس غير ملابس النوم! إنه الليل وقد أظلم، إلى أين تود هذه الأنثى الخروج في هذه الساعة؟

-"ليتها تأخذ كاتي معها، خذيها يا سارة، خذيها"

قالها عمر بشكل متحمس وهو يراقب باهتمام، فتحت سارة باب خروج منزلها، لقد كانت لوحدها، والقطة هناك بالداخل تتأملها، همت بالانصراف

وغلق الباب لولا أن مواء القطة أرجعها، نظرت إليها، وكذلك نظر عمر، "هيا احمليها"، أقبلت سارة نحو قطتها، وحملتها وهي تقول:

-إنك قطة جميلة هادئة لن أتركك وحيدة وسآخذك معي إلى الاجتماع.

قفز عمر من مكانه فرحاً، وهو يعتز بتلك القطة، التي استدرجت الفاتنة بموائها، ثم جلس وهو يفكر في كلمة اجتماع، مع من؟ وأين؟ وما موضوعه؟ "يبدو أننا سنكتشف جانبك المظلم أيتها الحسناء".

لم تكن الكاميرا المعلقة في عنق القطة تبرز شيئاً، فسارة كانت تضم القطة بصورة جعلت الرؤية متعذرة، كان عمر يسمع فقط خطوات سارة، ويرى بعض الأحيان مصابيح الطريق، أو شيئاً من جيد سارة وذلك الخال الذي يزينها، آه كم يسلبه بعيداً، وكذلك كان، شرد ذهنه، لولا أنه سمع صوتاً ينادي سارة بالصعود، إنه صوت من داخل سيارة، ظهر وكأن سارة تفتح الباب الخلفي للسيارة، وضعت فيه القطة الهادئة على كرسيها الخلفي، ثم راحت تفتح الباب الأمامي وتعانق سائق السيارة، وهي تناديه: "أبي...أبي كم أنا مشتاقة إليك..."

لم يستبِن عمر كنهه ذلك السائق الذي أصبح لسارة أباً! فحدقة الكاميرا التجسسية لم تشمل ملامحه، لكن حينما نطق بصوته الرخيم مستقبلاً ابنته ومعانقاً لها، اقشعر بدن عمر لسماعه، كان صوته مميزاً بل ومألوفاً،

صوت سمعه لسنوات في حي الهناء، كان ذلك الصوت ما هو إلا صوت ‹‹داوود›› بدون أدنى شك.

من هول الصدمة رمى عمر ببدنه على الكرسي حتى كاد يسقط به، كان يتخيل أن تكون هنالك مفاجآت، لكن ليس بهذه الحدة، سيمفونية سعدان المقفاة التي أتبعها بطبول من قهقهات، تكاد تصبح مفهومة هذه الليلة.

داوود هو والد سارة، وهو يرتبط بيحيي، وسليمان يرتبط بسارة، سارة اشترت منازل بحي الهناء، وكذلك فعل سليمان هناك بحي الصفاء، الكل يخفي هوياته، لماذا هذا الإخفاء؟ لم هذا التكتم؟ إنها عصابة ولكن ما أهدافها؟

تساؤلات جمة كانت تدور بخلد عمر وهو يتابع ويحاول رصد أي كلمة تدور بين الوالد وابنته.

-كيف هي أمورك ابنتي؟

-بخير، الأهداف أحققها تباعاً، ذاك الأخرق عمر قد أغرم، وأراه صار يذوب في هواي.

-ما دليل أقوالك؟

-غيرة، فقد ضرب سليمان، وهدية... أهداني قطة بيضاء، بعد أن اشتراها لما علم حبي لها، كذلك عيونه وتصرفاته، لا تخفي ولعه بي، وقد خرج عن ورعه كذلك...

-جيد، وصلني أن سليمان كاد أن يفضحنا، لكنه تصرف بذكاء، واستطاع أن يضبط نفسه وألا يرد ضربة عمر، لو ردها لكاد الأمر أن ينكشف، فعمر ذكي لا تستهيني به يا سارة.

-نعم لديه بعض الذكاء، لكنه لم يشك قط في تلك الحادثة؟

-وتحقيقه حول المكتبات انتهى على أي نتيجة؟

-هنا رصدت شيئاً ما من ذكائه، فقد توصل إلى كون من نشر المنشورات، أكبر بكثير من مجرد هاوٍ.

-إذاً الشك زرع في خلده، علينا أن نبدد شكه هذا بالإلتهاء بحدث ما يبعده عن معاودة النبش تلك.

-كيف ذاك يا أبي؟

-سأترك سليمان بن يحي يلعب لعبته المحبوبة.

-القتل!

هز داوود رأسه ولم يعقب، وكذلك هز عمر يده لتغازل شعر رأسه وهو يسمع هذا الحوار، معلومات أخرى تنضاف إليه، فسليمان ابن يحيى، وهو عمر هدف من أهداف المخطط الغامض، فلم كل هذا الاهتمام؟ وكيف أصبح مجرد حانوتيين بخيلين يخططان وأبنائهما لهذه الأمور؟ بل ويملك أحدهما تبدو وكأنها فاخرة؟ هل هم متورطون أيضاً في حادثة البيض الشهيرة، وما سبقها وتلاها من أحداث؟ حيرة تبدو على محيا عمر، وكذلك نوع من الخوف اكتنفه، وكأنه الخوف من مجهول يصوب بندقيته إليه، وهو لا يعلم في أي اتجاه يترصده.

انعطفت السيارة يميناً وهي تتخطى طريقاً غير مُعبّد، كان عمر يحاول أن يستجلي موقع المكان الذي تمضي فيه السيارة، لم يستبِن شيئاً، فالظلمة داخل السيارة، جعلت كاميرا "كاتي" لا تعمل بشكل جيد.

وصلت السيارة، واطفأت أنوارها، كانت بالمكان نفسه سيارات أُخر تقف أمام باب ضخم، إنه باب مستودع سلع قديم، في ملكية ابنيّ العم، انفتح الباب الصغير الذي يتخلل الباب الضخم، وخرج منه شاب طويل، أقبل معانقاً لداوود، عانقه بحرارة، ثم جرى نحو سارة الحاملة لقطتها، وعانقها عناقاً كاد فيه أن يقتل القطة التي بينهما، أصدرت مواءً تعبر عن ألمها، ما جعل سارة تبعده بقوة وتقول:

-أوه سليمان... لا تزال على خشونتك التي تركتك عليها

-لقد أفزعتني هذه القطة، ولم أنتبه إليها

-إنها هدية غريمك... عمر

-ولا تخجلين من الإتيان بها

-فقط لأذكرك بأنك بخيل ولست بكرم أهل العرب...

سليمان يجيب بعد أن أصدر ضحكة مدوية:

-مغفلون حينما تستعبدهم شهواتهم يصبحون عمياً، وسذجاً، ويغدقون الأموال في غير وجهة.

-المهم القطة لي، وأنا لك، والموت لعمر...

تضاحكا معاً، وأخذ سليمان بيدها، وهم يقصدون المستودع، بعد أن سبقهما إليه داوود ويحي، أما عمر فكان يسمع وبعض الأحيان يرى، كان يستشيط غضباً، وهو يصغي لتلك الكلمات، تمنى لو أنه في المكان نفسه ليربي هؤلاء على احترامه واحترام العرب والمسلمين قاطبة، لكن...

-لكن أليس هؤلاء عرباً؟

تساءل عمر وهو يستدرك هذه النقطة التي غابت عنه، وراح يحدث نفسه:

-مهلاً مهلاً، من أسماء هؤلاء يعرف الأصل... سارة داوود يحي وسليمان، أسماؤهم تدل عليهم، إنهم كذلك إذاً؟ لكن ما الذي أتى بهم إلى منطقتنا؟ ما الذي يريدونه منا، ونحن أبعد بكثير عن مواقع الأحداث الكبرى هنالك؟

****

الاجتماع

كانت القطة ترمق هذا الذي يتكلم باهتمام، فالذي أثار انتباهها هو طربوشه الذي يتدلى منه خيط ينتهي بكرة حريرية، كانت تترقب حذرة تلك الكرة التي يحركها بعض النسيم، ومن وراء الأثير كان عمر مرتاحاً لوضعية القطة تلك، فالمشهد الآن منقول إليه صوتاً وصورة وبوضوح شبه تام، فضوء المستودع كان شيئاً ما خافتاً، لكن ملامح المتكلم كانت ظاهرة جلية، خاصة وأنها ملامح مألوفة، إنه داوود، بشحمه ولحمه، ذلك العجوز صاحب الدكان، لم يكن عمر يتخيل أن يراه الآن بهذه الثقة منتصب القامة، عَهِده منحنياً، يُظهر مودة تقترب من الخنوع، وها هو يراه على حقيقته، بوجه صارم قاس، ووجه يمتلئ خبثاً ومكراً.

-إنكم تعلمون أحبابنا أن ما نقوم به عظيم، وقد كنت في اجتماع عالمي الأسبوع الماضي مع إخواننا، وهم يشيدون بأعمالكم، بل ونوهوا بالخطة التي نسير عليها في سبيل الاستيلاء على هذه المدينة التاريخية، فبعد الشتات اجتمعنا في موطننا المركزي هناك، وها نحن نعود منه إلى الشتات في جميع الأنحاء، كي نعيد بناء الوطن الكبير، الواسع الفسيح، فكل ما تخطته

أقدام أجدادنا هو ملك لنا، لا يهم كم بقوا، وكم ظلوا في تلك الأمكنة، فالأرض ملكنا نحن الأخيار...

يشرب داوود كأس ماء، ثم يعاود الاسترسال في حديثه:

-المدينة التي نحن فيها الآن كان بها جدي منذ قرون، وقد وطئها يوم كانت في عهدة أحد القادة الإفرنجيين، وأنتم تعلمون الكنز الذي كان بين يدي جدي، هذا الكنز تركه بعد أن اجتاح المسلمون المدينة، وقد استطاع الفرار من بطشهم، لكنه لم يستطع نقل الكنز معه، وقد حاول أبناؤه من بعده الحصول على ذلك الكنز لكنهم فشلوا كما تعلمون، ترك لنا أجدادنا خطاطات وشفرات تبين لنا مكان الكنز، وتوضح ماهيته، وبوصفي أحد الحفدة، فخطاطات الأجداد بحوزتي، والكنز موجود حسب دراساتي التي قمت بها مع ابن عمي يحيى، الكنز موجود تحت المسجد الكبير الذي يقع بين حارتي الهناء والصفاء.

فتح عمر فاهه ورمى بظهره على الكرسي متعجباً، وهو يستمع إلى هذا الخطاب المثير، وقال في نفسه: "كل هذا يجري ونحن نائمون!"، ثم عاود الانحناء مرة أخرى نحو حاسوبه ليعاود الاستماع إلى داوود:

-الوصول إلى الجامع مباشرة يكاد يكون محالاً إلى حدود الساعة، وذلك لوجود الشيخ خالد، وصلاح، وكلاهما قيمين على الجامع، فالشيخ خالد هو

إمامه، وصلاح هو مؤذنه، والقيم على أمور المسجد الأخرى المرتبطة بتوظيف أصحاب النظافة وغيرهم، وهناك أحد المقاولين الذي كان يهتم بعملية ترميم المسجد، لكنه مجنون الآن ولم يعد أمره مهما، لهذا كنا نسير بخطتين فقط فيما سبق، لكن سنضيف خطة ثالثة قديمة جديدة...

الخطة الأولى: تكلفت بها ابنتي سارة، وهي تقتضي إغواء عمر، وهو ابن الشيخ خالد، ومحاولة إسقاطه في شباكها، لإبعاده عن التواجد اليومي بمنزله أو بالمكتبة، وبذاك يتكلف عمال بنائنا بالحفر ابتداء من أحد المنزلين اللذين اشترتهما ابنتي، وصولاً إلى أسفل المكتبة، لعلها تكون تحوي القبو الذي يقود بسردابه إلى قبو المسجد مباشرة، نحن لا نعلم إلى حدود الساعة أي المكتبتين تحتويان على القبو التاريخي، هل هي مكتبة الهناء؟ أم مكتبة الصفاء؟

عاود داوود شرب الماء مجدداً، ثم استرسل في حديثه:

-الخطة الثانية: هي الخطة التي يقوم بتنفيذها السيد سليمان، وهي خطة اعترتها بعض العقبات، فزوجة صلاح مخلصة ولا يمكن شراؤها، هذا ما تبين من خلال تقريره الأخير، لهذا سنقوم بأعمال الحفر ابتداء من أحد هذين البيتين اللذين اشتراهما السيد سليمان، في الفترة التي تكون فيها زوجة صلاح في عملها تُدرس...

قاطع أحد الحاضرين داوود قائلاً:

-أراك في الخطتين معاً وحين الحفر، استغفلت الشيخ خالد وصلاح، فكلاهما سيستمع إلى أصوات الحفر وهي تنخر بناءه من الأسفل؟

ابتسم داوود وبنوع من الثقة رد قائلاً:

-تساؤل منطقي سيد يوسف، وجوابه في الخطة الثالثة، فهي تنسجم مع الخطتين معاً، فقط الخطتان الأوليتان، سريعتان، أما الخطة الثالثة فهي نوعاً ما بطيئة، ولكن نتائجها مضمونة، الخطتان الأولى والثانية نجاحهما يتعلق بمدى وجود قبو بأحد المكتبتين أو لا، أما الخطة الثالثة فتقصد الهدف مباشرة: وهو المسجد.

هزّ الحضور كلهم رؤوسهم باهتمام بالغ، وكأنهم يشيدون برجاحة فكر داوود، نظر إليهم، ونظر إلى ملامحهم المشجعة له، ثم أكمل الحديث:

-الخطة الثالثة، هي في الحقيقة ابتدأناها منذ أن ألصقت وابن عمي يحيى تلك المنشورات...

يتوقف داوود لأخذ أنفاسه، في وقت اتسعت عينا عمر وهو في غرفته المظلمة يستمع إلى هذه الحقيقة: "أنتم وراء تلك المنشورات، ووراء تلك الليلة المشؤومة، حفظك يا رب، هؤلاء شياطين إنسية، والله لتلك القطة

تستحق وساماً وذكرى تخلدها في الأيام المقبلات، لولاها لهلكنا من حيث لا نعلم"، أكمل أيها الشيطان فأنا في الاستماع:

-ابتدأناها في تلك الليلة العظيمة، التي جعلنا السكان فيها يفترقان، بل وسيطرنا على دور لم نكن لنستطيع السيطرة عليها بدون تلك الخطة المباركة، بل وأخرجنا نساء من مخادع الحياء، إلى دروب السفور والإغراء، وهذا من ضمن أهدافنا للإقلال ما أمكن من عدد مرتادي المسجد، خاصة الشباب وصرفهم إلى ملاهي وشهوات الحياة، نريدهم متفرقين متصارعين، المسجد يوحدهم، يوحد تطلعاتهم، وهذا كله من أجل أن يتناسى سكان الحيين الجامع، ويصبح بمرور الوقت لنا، فنقتحم قبوه للحصول على كنزنا الموعود، فنعيد مجد المدينة ونسيطر عليها، انطلاقاً من هذا المسجد أو بالأحرى معبدنا الذي به سنرضخ كل الأميين ها هنا، لهذا ولتسريع هذه الخطة قررنا ما يلي:

توقف البث فجأة، وبقيت الصورة التي تنقلها الكاميرا التجسسية جامدة بلا حراك ولا صوت، صاح عمر متذمراً:

-اللعنة أهذا وقت انقطاع الصبيب اللعين... ياله من حظ عاثر.

ظل عمر متذمراً يترقب معاودة البث، مضت أكثر من ساعتين، يُحين الوضع ولا استجابة، الآن اشتغلت، لكن بعد فوات الأوان، المجتمعون

يخرجون، وداوود وابنته يركبان سيارتهما، وقبل أن يهُمَّ داوود بالمغادرة خاطب سليمان من نافذة سيارته وقال له:

-الأول ثم الثاني بعد أسبوع بالضبط، ثم تختفي بعض الوقت إلى أن أعاود اتصالي بك.

-حسناً مستر داوود لن يكون إلا ما أردت.

ثم غادرت السيارة، وكم أراد عمر أن يعاد افتتاح الحديث بين الأب وابنته، لكن لا شيء من هذا كان، فسارة كانت تعبة، وقد تركها والدها تستريح طوال الطريق.

"من هو الأول ومن هو الثاني؟" تساءل عمر، ثم استرسلت التساؤلات تكتسح عقله:

-هؤلاء يركزون على أبي والسيد صلاح؟ ومهمة ما أوكلت لسليمان! وسليمان كما قالوا تستهويه لعبة الموت، هي التصفية إذاً لكن من الأول ومن الثاني؟ ومتى؟ هل أبلغ الشرطة؟ ولكن هؤلاء نفوذهم كبير، وأخاف إن بلغت أن يجد هؤلاء منفذاً للفرار من قبضة العدالة؟ لكن عليّ حماية أبي والسيد صلاح، سأبلغهما فجراً بما لدي من معلومات خطيرة، الأمر لا يستدعي أدنى تأخير.

اغتيال

تسلل بحرفية من سطح منزل سعدان الذي صار يملكه نحو منزله المجاور الثاني، وبالطريقة نفسها نحو سطح منزل مجاور آخر، إنه فوق منزل صلاح بالضبط، فتح باب السطح العلوي بهدوء، فهو خبير في هذا، نزل الدرج على رؤوس أصابعه، ظل يتخاتل في ظلمة البيت، إلى أن استقر به المقام بالقرب من غرفة علوية، كانت مضاءة، خرجت منها للتو امرأة وهي تلقي السلام على زوجها، مستأذنة إياه بالذهاب إلى النوم، ظل الختّال جامداً في تلك الظلمة، ولمَّا تأكد من نزول فاطمة إلى أسفل البيت، انتظر قليلاً، ثم ذهب نحو الغرفة المضاءة، فتحها بهدوء، وأقبل على حين غرة داخلها، هز صلاح رأسه معتقداً أنها زوجته وقد عاودت الدخول عليه، لكنه وجد رجلاً طويلاً ملثماً وبلباس أسود، وما يشبه القناع في يده اليسرى، وجده أمامه بالضبط، وقبل أن يقوم من مكانه مدافعاً، خاطبه الطويل بصوت خافت قائلاً:

-حسابي معك أنت فقط، لا شأن لي بزوجتك، وإذا تهورت فسأدخلها في حسابي أيضاً، وعوض أن تهلك وحيداً، فستهلك هي الأخرى معك، فما قولك؟

-وما الضامن أنك لن تؤذي زوجتي؟

-أنا قاتل محترف، ولست بالهاوي، أتقيد بالأوامر ولا أزيد عليها.

-سليمان إذاً؟

تبسم سليمان فأزال عنه اللثام، وأضحى يستعد لوضع القناع الكيماوي على وجهه، لكنه بادر بسؤال صلاح قائلاً:

-وكيف عرفت؟

-من ضخامة جسدك وببعض من الفراسة...

-لا يبدو عليك الخوف؟

-إن حان أجلي فمرحباً به، ولهو خير الختام أن تقتلني وبين يدي القرآن الكريم.

-جيد أراك تقلب صفحاته، هما ثوان فقط وتموت، ولن ينفعك كتابك.

-بلى سينفعني فافعلها ولا تجبن، وكن فارساً وصاحب كلمة، ولا تؤذي زوجتي.

-كل من قتلتهم تركت لهم هامشاً من الأماني، وهذه أمنيتك سأحققها لك فمت مرتاحاً، لكنك لا تسألني على أي ذنب سأقتلك؟

-سأقتلك حماية للتاريخ، وهذه شهادة أعتز بها.

-التاريخ لنا نحن من صار يكتبه.

-تكتبونه في كتبكم حبراً، وفي إعلامكم كذباً، نحن نكتبه في الأرض دماً، فما عندكم في الهواء يفنى، والذي عندنا في الأرض أبقى.

-ما جئت هنا للمناظرة، جئت لأكتب تاريخ وفاتك...

-افعلها إذاً ولا تجبن... أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمداً رسول الله.

وضع سليمان القناع على وجهه، وأخرج من الكيس الذي كان يحمله قنينة شديدة التركيز من غاز ‹‹كيبريتيد الهيدروجين››، ثم رشه مراراً في الهواء، نظر صلاح إلى غرابة ما يقوم به القاتل، اعتلت أنفه رائحة نفاذة، تشبه رائحة البيض الفاسد، لكنها أقوى من حيث التركيز، بل إن صلاحاً أحس بتهيج غير طبيعي على مستوى عينيه، أعقبته على الفور نوبة تنفسية حادة، اختنق لها، ثم سقط لها المسكين أرضاً، وخرَّ صريعاً في الحال وقد فارق الحياة.

أقبل القاتل نحو الصريع، وانحنى متأكداً من موته فعلاً، ثم نهض محملقاً فيما حوله، نظر إلى المكتب الذي بجواره، فوجد قرآناً مفتوحاً، تأمل صفحتيه، فبرزت في إحداها سورة النمل، أغلق القرآن الكريم وعلى محياه اعتلت ابتسامة ثقة وغرور وقال:

-خطوة ذكية أيها الهالك لترشد القادمين على قاتلك، لكنك مع قاتل محترف، والنمل الذي يدل علينا طويناه في قرآنك، هل تخالون أننا لا نعلم دينكم، ثوابتكم، أنفاسكم، عاداتكم، نقاط الضعف والقوة عندكم؟ أنتم واهمون فما وصلت لقتلك هنا، حتى أرعبنا حراسكم، ففتحوا لنا أبوابكم طوعاً أو كرهاً، قوتكم أيها الحمقى في هذا الكتاب الذي أغلقت للتو، لكن ما عدتم تقرؤونه إلا رياءً أو تباهياً، قد فتناكم كي لا تتدبروه، وجمدنا عقولكم كي لا تعقلوه، فنوماً هنيئاً في موتك، وفي الحقيقة استرحت من واقعكم الذي سنزيده انهزاماً، فيما نزداد نحن تألقاً وانتصاراً...

أصغى باهتمام بالغ الشيخ خالد لخطورة المعلومات التي أخبره بها ابنه، كان الوجوم بادياً على محياه المنير، فراسته أخبرته بهذا سلفاً، لكن كان يخاف أن يتهم الأشخاص بغير برهان، والآن وهو يتأمل برهان ابنه، ما وجد إلا أن يُحيّي عمر على عمله النبيل وقال له:

-فخور بك ابني أنت وقطتك البيضاء، كنت أعلم أنك ستميل لأبيك، ولن تميل للدنيا الخداعة، لكنك زدت اجتهاداً وأبدعت، واستثمرت العلم لصالح العامة، وهذا أمر افتقرناه نحن في هذا الزمن الذي سبقنا، أجدد فخري بك، وها أنت ترى أنها عصابة كبيرة خطيرة، ووجب علينا مواجهتها بالذكاء والحذر، والآن لا بد من إخبار السيد صلاح، إنه الفجر يقترب يا بني فهيا بنا إلى المسجد.

-على نهجكم وإرشادكم سرنا يا أبي، فهيا بنا إلى المسجد، وكم أنا متشوق إلى إهلاك سليمان ذاك، بيدي هاتين.

-سنخطط للأمر بني مع السيد صلاح وسعدان فلا تتعجل، كل شيء بقدر.

-سعدان المجنون؟

-نعم، اعترته صدمة نفسية في الأسبوع الأول فقط من حادثة البيض الشهيرة، لأنه اطلع على أمور خطيرة بعينيه، بعدها عاد إلى رشده، لكنه اعتمد نوعاً من التمويه، وظل يمثل دور المجنون، حتى يتمكن من متابعة العصابة، أخبرني منذ مدة على الصلة التي تربط بين داوود ويحي، وأنهما يجتمعان كل أسبوع، أخبرني أن ليلة الحادثة لمح أشخاصاً ملثمين، يرشون غازاً ما في منزل الغني، الذي مات كما قيل من صدمة السرقة، هو موقن بأن

الغني قد صُفي، ويقول أنه اختبأ جبناً، وسمع أحد الأصوات المألوفة لديه والمتميزة، صوت له بصمة خاصة لشخص واحد لا غير.

-صوت داوود، ولكن لم باع منزله؟

-أي نعم كان صوت داوود، يقول سعدان أنه ترك أهله يبيعون منزله خوفاً عليهم من الأذية من قبل هذه العصابة النافذة، يقول أنّ الصدفة وحدها هي التي جعلته يكتشف هؤلاء، فبعد الهجوم بالبيض، أوصل ذويه للمبيت في العراء من شدة الرائحة النتنة، وأنه وهو راجع رأى ما رأى، فلاذ بالبيت هرباً، ورآهم بأم عينيه وهم يقتحمون بيته، ويسرقون ما لديه من مال، لم يكن يستطيع منعهم، فالخوف اعتراه، ومن شدة الصدمة والصرع لم يحس بنفسه إلا مغشياً، بل وغائباً عن العقل والوعي لمدة أسبوع.

-وعاد للحي بعد غياب ليرشد القوم إلى هذه الحقيقة بتلك الكلمات المشفرة؟

-تلك الكلمات لم يبُح بها إلا لي ولك وللسيد صلاح، ليستدرجنا ويجس نبضنا، ويرى رد فعلنا، لم يكن يثق في أحد غيرنا، لأنَّ الآخرين رآهم كل منهم قد تحلق حول واحد من صاحب الدكانين، ففي حي الصفاء أصبح يحي هو الذي تشار إليه الأصابع للاستشارة، وكذلك الأمر بحي الهناء، فالأمور أوكلت إلى داوود، رأى الناس قد ذهبت إلى جزارها بأيديها تطلب ذبحها.

-جميل يا أبي، الآن لدينا خلية مقاومة، متكونة مني ومنكم ومن صديقي عباس والسيد صلاح وكذلك سعدان.

-بالضبط لا بد من العمل بشكل جماعي، لكن مع الحذر، والاستقرار فقط على من لا يُخرجون سراً، ولا يخونون.

-وهو كذلك أبي، لكن ألا ترى أن السيد صلاح تأخر عن الأذان الأول لصلاة الفجر؟

-لعله خير، مع أنه ليس من عادته التأخر، فهو منضبط، على أي نكاد نصل المسجد، لنستبين حقيقة الأمر.

****

الجنازة

أكمل الشيخ خالد إمامة صلاة الفجر، استدار مستقبلاً صف المصلين الوحيد الذي وراءه، رمقهم بنظرة فاحصة فلم يجد بينهم صالحاً، لاحظ بعض القلق على محيا ابنه عمر، الأمر يستدعي الاهتمام، غياب غير مسبوق، فالسيد صالح حتى في مرضه كان يأتي ويداوم على الصلاة في المسجد، نهضت الأبدان وكأنها تتلكأ في النهوض، تخاف حصول حدث ما، فالمستقبل بضع خطوات، وفيه يُعلم الأمر، فليته بخير، أسرها الشيخ في نفسه، ومضى برفقة ابنه نحو بيت السيد صلاح.

كان الوقت غير ملائم لطرق الأبواب في تلك الصبيحة، ولكن ضرورة الحال فرضته، دق الباب على استحياء، سمعت فاطمة تلك الدقات التي ابتدأت خفيفة، ثم تصاعدت قوتها، نهضت من فراشها متسائلة، هل نسي صلاح المفاتيح؟ ذهبت من غير تردد، ففتحت الباب، وانتظرت زوجها، لم يدخل من الباب إلا نسيم بارد، اضطرها إلى الانكماش خلف الباب، الزوج لم يدخل؟ فمن الطارق؟ ظلت على حالها حتى سمعت صوتاً خلف الباب المفتوح يقول:

-السلام عليكم، أنا عمر برفقة أبي الشيخ خالد، متأسفون على المجيء في هذا الوقت الباكر، ولكن فقط أردنا الاطمئنان على السيد صلاح، فلم نره اليوم معنا مصلياً بالمسجد؟

تفاجأت فاطمة من هذا الكلام، فهي كانت تظن أن زوجها ذهب للصلاة، وهذه عادته، صمتت قليلاً، ثم ردت:

-وعليكم السلام ورحمة الله، لقد خلته ذهب معكم؟ سأذهب لرؤيته إن كان بمكتبه.

بدأت دقات عمر ووالده تدق، ما لا يتمنونه يقارب على أن يكون حقيقة، كانوا فقط ينتظرون صرخة الصدمة، عدُّوا في خيالهم خطوات الزوجة، فاطمة تصل الآن إلى غرفة المكتبة، وجدتها لا تزال مضاءة كما تركتها قبل نومها، يدها أضحت ترتعش وهي تحاول فتح الباب، دقات قلبها تصاعدت، أنفاسها تكاد تنقطع، فتحت الباب، كرسي المكتب خالٍ من صاحبه، وشباك النافذة مفتوح، رائحة صدمت أنفها، كأنها رائحة بيض فاسد، رجل إنسان بدت خلف المكتب، إنها رجل زوجها، تثاقلت خطواتها، تشجعت ومضت نحو المكتب مهرولة، أطلت خلفه، وجدت صالحاً جامداً بلا حراك، بعينين جاحظتين، وقد اكتسى جسده رداء الموت الأزرق، جاءت لتصدر صرختها، وافتكرت ملابس نومها، أغلقت فمها، غطت شعرها وبدنها بإزار

معلق، ثم انهارت مصدرة تلك الصرخة النسائية المجلجلة، تلك الصرخة التي تخبر بحلول الرزايا والنكبات.

-فعلها الوغد اللعين...

بهذه الجملة صاح عمر وهو يقتحم البيت جرياً، وخلفه الشيخ خالد، الذي كان يكابر لمجاراة سرعة الشاب الذي يسبقه، وصلا، فوجدا فاطمة ارتكنت الحائط وقد دخلت في دوامة من البكاء والنحيب، وهناك خلف المكتب كان صلاح ممدداً، أسرع عمر إلى إغلاق عينيه، وهو يشم تلك الرائحة، رائحة كرائحة البيض الفاسد، أراد إخفاء هذا المعطى، نظر إلى أبيه الذي فاضت عيناه دمعاً، وهو يرى صديقه قد فارق الحياة بغير رجعة، لكنه فهم نظرة عمر وقال:

-توفي بسكتة قلبية، لله ما أعطى ولله ما أخذ، إنا لله وإنا إليه راجعون. ليس لنا إلا الصبر بنيتي عظم الله أجره وأجركم في فقيدكم الغالي على قلوبنا، وإكرام الميت الإسراع في دفنه، قم يا بني عمر بالواجب واستدعي من النساء من يعين السيدة فاطمة، سنصلي على المرحوم بإذن الله بعد صلاة الظهر.

-عظم الله أجر الفقيد سيدة فاطمة، بكل تأكيد أبي سأقوم باللازم.

كفكفت فاطمة دموعها وقالت:

-رجاء شيخنا كن أنت القيم على قبول التعازي نيابة عن أسرة الفقيد، فقد كنت نعم الأخ والصديق بالنسبة إليه.

-لا تقلقي بنيتي فاطمة أنا هنا معك، سأقوم بتغسيله، والبركة في الشباب ونساء الحي فلا تحملي هما.

مر الصباح كئيباً رتيباً، وكان جو الجنازة مهيباً، جنازة جمعت الحيين معاً، وكانت مناسبة لتوحيدهما مؤقتاً، بل إنّ الشيخ خالد ركز على موضوع الوحدة وترك الأحقاد، ونبذ شياطين الإنس والجنّ التي تعمل على الفرقة، كان من بين الحضور داوود ويحي، كان عمر ينظر إليهما بحنق، ولما رأى سليمان يلتحق بالجنازة أيضاً، استشاط غضباً، لكنّ يداً أمسكته، فأطفأت لهيب غضبه، كانت يد صديقه عباس، الذي أخذه من يده وأبعده قليلاً عن رؤية أولئك الخصوم.

-أرسلني شيخنا خالد إليك، هل تريد إبطال الخطة التي وضعتها بنفسك هذا الصباح؟

-لكن أن يقتل ويأتي إلى الجنازة هذا أمر حقير.

-يا عمر ما هي إلا ساعتين، وكنت توصينا أنا وسعدان وبرفقتنا أبوك الشيخ، بأن وفاة صالح ينبغي أن تمر وكأنها طبيعية، بمعنى ألا تسري فكرة

قتله بين العامة، حتى تنجح خطتك التي توافقنا عليها، وها أنت الآن تريد أن تفشل خطتك بنفسك.

-حسناً، حسناً، لنعد إلى مراسيم الجنازة

-لا يا أخي، أنا أعرفك ذكياً لبيباً، لكن بعض المرات لا تجيد الكذب فيما يتعلق بمشاعرك.

-وهل سيجيدها أبي؟

-أبوك لا يكذب لكن حلمه، وخبرة السنين، تجعله يقف أمام هؤلاء القتلة كجبل لا تحركه ريح.

-بمعنى أنا قصبة...

يضحك عباس ويجيب:

-أضحكتني في هذا العزاء، لا لست قصبة، أنت البحر الذي لا يُخفي هيجانه أو هدوءه، البحر الذي تؤثر عليه ظروف الأجواء المحيطة، وريح شعر سارة...

-عليك اللعنة، أهذا وقت المزاح، بل قل أنت يا صاحبي الريح الذي يقود البحر إلى بر الأمان.

-إذاً استمع لرأي الريح، وهلم نبتعد أكثر عن مراسيم العزاء.

-وهو كذلك أخي عباس، لكن أخبرني عن طبيعة هذا الغاز الذي به قتل السيد صلاح رحمه الله؟

-اسمع يا عمر، هذا غاز اسمه كبريتيد الهيدروجين، غاز موجود في الطبيعة، عديم اللون، قابل للاشتعال، رائحته كرائحة البيض الفاسد، بل إن رائحة البيض الفاسد هي من مصادر هذا الغاز، فقط رائحة البيض لا تكون مركزة وبتلك القوة للخنق والقتل، له مصادر أخرى من النفط، ومن تحلل بقايا الطعام ومنها عفن البيض كما أشرت، حتى رائحة الفم الكريهة ومجاري الصرف الصحي تكون من مصادر هذا الغاز...

-إذاً هذا غاز نتعايش معه فلماذا لا يضرنا؟ لم لا يقتلنا؟

-المسألة في قوة تركيزه، هؤلاء القتلة اعتمدوا غاز كبريتيد الهيدروجين واستجمعوه في قوته القصوى القاتلة والفتاكة في بضع دقائق، لم يتركوا للجسم حيزاً زمنياً لإنتاج مضاد يقاوم ذلك الغاز فيما لو كانت نسبة تركيزه منخفضة.

-لهذا اعتمدوا عنصر البيض الفاسد وألبوا باستعماله أداة للهجوم في تلك الليلة، كي يموهوا عن عملية استعمال هذا الغاز، وقتل ذلك الغني صاحب المنزل المجاور للمكتبة.

-لكن لماذا لم يستعملوا هذا الغاز تلك الليلة مباشرة لقتل السيد صلاح وربما حتى زوجته؟

-بكل بساطة أخي عباس، لأن مكتبة حي الصفاء او مكتبة حي الهناء وكذلك المسجد، هذه أماكن لا يتوارثها ولا يكون قيّماً عليها إلا عائلات أصيلة معروفة، وبالتالي هي أماكن لا يمكن التصرف بها بالبيع والتفويت، إنها موروث قومي، ورموز لقيمنا وقوة بأسنا وحضارتنا نحن المسلمين.

-شكراً على هذا التوضيح، لا بد أن تعزمني على كأس شاي منعنع، قبل أن نشرع في تدبير أمور الخطة منذ الليلة.

-"غالي والطلب رخيص..."

ضحك الشابان معاً ونسيا بعض هم الجنازة، وهما يسيران نحو حيّ الهناء وبالضبط نحو منزل عمر.

****

أقبية وسردابان

مر يومان على تلك الجنازة المهيبة، كان حي الهناء في ذلك الليل البهيم هادئا، فقط بعض المتسامرين على سطح أحد منازل الحي، كانوا ثلاثة يجمعهم إبريق شاي منعنع، يتناوبون كؤوسهم على أفواههم في تلك الظلمة الحالكة، كأنهم يترقبون أو ينتظرون حدثاً ما.

-ما أجمل القبو الذي في منزلكم يا عمر، لم أكن أعتقد أن منزلكم يحتوي قبواً بذاك الرونق، وبذاك العبق التاريخي الذي يحسه المرء، بل لن تخطر على بال أحد أن يكون هنالك سرداب يربط منزلكم بالمسجد الكبير، وكذلك سرداب آخر يؤدي إلى بيت السيد صالح رحمه الله، إني لمندهش لما رأيته هذا الأسبوع.

-لأنك أهل للسر أخبرناك به يا عباس، لم أكن أعلم إلا بالقبو، أما مسألة السرداب فعلمت بها حديثاً كما علمتها أنت، ربما لم أكن أهل ثقة عند والدي الشيخ.

تبسم الشيخ خالد وهو يسمع من ابنه هذه الدعابة، وتدخل موضحاً:

-كنت أنتظر منك موقفاً يعبر عن نضجك وكمال رجولتك، أنت في سن الثلاثين أي نعم، ولكن هذا لا يكفي، الرجولة مواقف ولا تحسب بعدد السنوات، وحينما برهنت أنك أهل للسر أخبرتك به، أما عباس فهو بمثابة الأخ لك، ولعمري إني لأعتبره ابناً لي كذلك، أما قبو الجامع الكبير فلا يعلم بوجوده إلا أنا وصالح وسعدان، وسعدان هو الذي كان يعتني وأجداده من قبله بترميم القبو وإصلاحه بصفة شخصية.

أحس عباس بالامتنان فشكر الشيخ مطأطئاً برأسه، أما عمر فنظر إلى أبيه وكأنه يحاول استيضاح أمر ما:

-سعدان رجل غني ومقاول في البناء، يقوم بأمور الإصلاح للقبو بنفسه! وأخبرني أبي هل السيدة فاطمة تعلم بأمر القبو الذي في منزلها؟

-سعدان توارث ذلك الأمر أباً عن جد، أما فاطمة فهي تعلم بأمر القبو ولكنها لا تعلم بالسرداب الذي يربط بيتها بالمسجد الكبير، لهذا وانسجاماً مع خطتك طلبت منها أن تذهب إلى البادية لعلها تتناسى بعض الشيء فراق زوجها، وقد سلمتني مفاتيح دارها.

-داوود في خطابه ليلة ذاك الاجتماع وعند طرحه لخططه الثلاث، تكلم عن سرداب واحد، لهذا هم يفترضون وجود سرداب واحد؟ هل هم مخطئون في هذا الطرح؟

هز الشيخ خالد رأسه وقال:

-ليسوا مخطئين بالنظر إلى المخطوطات التاريخية التي بحوزتهم، فعلاً كان هناك سرداب واحد يربط مكتبتنا بالمسجد الكبير، الذي كان ديراً للعبادة قبل أن يحوله أجدادنا إلى مسجد، الجديد في الأمر أن أجدادنا زادوا في عملية أمان القلعة حينها، بأن أنشؤوا سرداباً آخر، وهو السرداب الذي يربط المسجد بمنزل صلاح رحمه الله. فنحن يا بني عمر من سلالة الأمير الذي حكم القلعة بعد أن دخلها فاتحاً، وصلاح رحمه الله من سلالة الوزراء الذين تتابعوا على معاونة الأمراء، وقد كانوا فيما مضى يقومون باجتماعاتهم المهمة تحت المسجد الكبير بالضبط، ولعلكم رأيتم شساعة ذلك القبو، والمائدة التاريخية التي تتوسطه، والتي لا تزال تحكي تاريخاً لن ينسى.

كان عباس وعمر يصغيان باهتمام وتشويق إلى كلام الشيخ، حينما لمحا شهباً اصطناعية تنفجر في السماء، إنها إشارة سعدان لهم، وتخبر بأن سليمان غادر البيت، وتوجه إلى وجهته المفضلة ليختلي بقنينات الخمر كما اعتاد كل خمسة أيام.

-إنها الإشارة، إذاً على بركة الله، فلنتحرك نحو القبو أبنائي...

قالها الشيخ خالد وهو يرى حماساً وهمماً شبابية اتقدت، ومضوا بعدها يمشون خلف العجوز وهو يقودهم من قبو مكتبة الهناء نحو قبو المسجد، كانت الطريق شيئاً ما طويلة، وما جعلها طويلة هي رهبة المكان التي تجعل الإنسان لا يمشي فيه على عجل، قوة التاريخ مبهرة، وما يحمله من غموض يبعث على التخوف وبعضاً من الارتباك.

وصلوا قبو المسجد الكبير، تنفسوا الصعداء، وارتاحوا على جوانب المائدة الكبيرة، استرعى انتباه عباس تلك النقوش التي على جوانب المائدة الرخامية الضخمة، كانت نقوشاً ليست لحيوانات ولم تبدُ رموزاً ظاهرات! كانت كما الحروف، حروف لغة غير معلومة، ما رأى في حياته البحثية حروفاً مثلها، صاح مندهشاً وقال:

-يا سادة هذه ليست مجرد نقوش عبثية! إنها لغة...

تفاجأ عمر وأبوه من صيحة عباس، وراحا يتأملان باهتمام تلك النقوش، فوجدا فعلاً تقاطيعاً لتلك النقوش وكأنها كلمات جمل، وكل تقطيع يحتوي على حرف قد يتكرر في خضم كلمة أو كلمتين، وبين كل تقطيع خط مائل يعبر عن نهاية كلمة وبداية أخرى.

-اكتشاف عظيم أيها العبقري، هذا هو كنزهم إذاً، هذه الطاولة الضخمة بما تحتويه من نقوش كثيرة، هي الكنز الذي يبحثون عنه، وتفاسير هذه الحروف لا بد وأنها معهم.

-بالضبط أخي عمر في هذه الكتابات أسرار يعتبرونها كنزاً بالنسبة لهم.

-نعم أبنائي ربما قد تكون طلسمات شيطانية أو هي علم متوارث يتوارثونه أباً عن جد ويمكنهم من التفوق والسيطرة على الأموال والعقول؟ هذه الأسرار التي هنا ليست إلا جزءاً من أسرارهم التي تجعل بعض عامتهم ملوكاً إن حازوها، انسوا أمرها الآن وهلم بنا إلى الخطة التي اتفقنا عليها.

-آه نعم أبي الخطة أولاً...

قالها عمر وهو ينظر إلى عباس، الذي فهم رسالة عيونه، بأن هذا الكنز لا بد من محاولة معرفة محتواه في المرة القادمة، بعيداً عن أعين الشيخ الذي سيرفض حتماً معرفة هذه الأمور.

وصلوا ثلاثتهم إلى منزل صلاح، فتح الشيخ باب القبو المؤدي إلى المنزل، وأخبر الشابين أنه سينتظرهما إلى حين عودتهما، صعد الشابان إلى الطابق العلوي للمنزل، ثم إلى سطح منزل آخر يملكه سليمان، ثم قفزا معاً فوق سطح منزل سليمان الذي يستقر فيه، وهو بالضبط منزل سعدان السابق،

كان باب السطح مقفلاً، تبسم الشابان وأخرج عمر مفتاحاً، أدخله في الباب فانفتح، وقال:

-استبدل قفل الباب السفلي، وتناسى الأحمق استبدال قفل هذا الباب، شكراً سعدان على المفاتيح.

-وماذا لو أبدل القفل العلوي أيضاً، أو استعان بمزلاج؟ ماذا كنا سنفعل حينها؟

-نفسية القاتل تبقى مرتبكة، مهما كان محترفاً، وعليها راهنت، حينما عاد من ارتكاب جريمته، بالكاد أغلق باب السطح بالقفل ونسي أن يدعمها بالمزلاج، أما ماذا كنا سنفعل، كنا سنستبدل الخطة في بعض تفاصيلها، هيا يا عباس نحن سارقون الآن وعلينا الصمت.

ابتسم عباس وهو ينزل الدرج خلف عمر، ثم انتشرا في المنزل بسرعة، وأخذا يبحثان في متعلقات الطويل كلها، لا أشياء مهمة، دخلا غرفة أخرى، إنها غرفة نومه، فوجدا فيها خزانة خشبية موصدة، نظر عباس إلى عمر مستفسراً:

-ما العمل الآن؟

-نقطة ضعف أي خزانة خشبية أين يكمن؟

نظر عباس متعجباً وحينما هم بالكلام قاطعه عمر قائلاً:

-ساعدني على استدارة الخزانة...

-قل لي رجاء متى كنت تسرق بغير مرافقتي؟

أجاب عمر وهو يخرج من كيسه بعد معدات النجارة، وقال:

-لا تنسَ أني أجيد النجارة، فعند أخوالي النجارين، تدربت عليها، الآن أعني على فتح الخزانة من جهتها الخلفية، بإزالة الإطارات الخشبية برفق كما تراني...

كان العمل مضنياً بعض الشيء، جعل العرق يتصبب صباً، فتح عمر إحدى النوافذ كي يتجدد الهواء الذي بداخل الغرفة، فهو لا يريد لسليمان أن يكتشف أن ذاتاً غيره دخلت المنزل، وبعد نصف ساعة من الاشتغال، فتحت الخزانة من خلفها، ليجدوا فعلاً ما كانوا يرغبون الحصول عليه، أداة الجريمة، قنينة غاز سام بلون رمادي وعلامة خطر تميزها.

-هيا لنسرع، لرد الخزانة إلى مكانها دون إقفالها، حتى يتسنى لنا إرجاع هذه القنينة مرة أخرى، قبل مجيء سليمان.

قالها عمر لعباس وهما يهمان بإرجاع الأمور كما كانت عليه، وعادا من الطريق نفسها التي جاءا منها، والتقيا مجدداً بالشيخ خالد، ليعودوا جميعاً يحثون الخُطى نحو قبو المسجد الكبير مرة أخرى.

****

مكاشفة

كانت الساعة تقارب الثالثة صباحاً، حين خرج يحيى من منزله في طريقه نحو المسجد الكبير، في الوقت نفسه خرج داوود من منزله أيضاً، وكلاهما كانت تدور في لبهما التساؤلات نفسها:

-ما القبو الذي اكتشفه ذاك المجنون سعدان؟ نعم هو يشرف على عملية ترميم المسجد منذ زمن، لكنه مجنون الآن وأنّى له الاكتشاف؟ يقول إن صلاحاً أسقط مفاتيح المسجد قبل موته، وأنه وجدها، ولما دخل وتفحص المكان جيداً وجد قبوا داخل المسجد... وأنه لم يخبر إلا صاحبي الدكانين؟ لماذا اختارنا هذا المجنون؟ هل في الأمر لعبة؟ هل كشفونا؟ وأنّى لهم اكتشافنا؟ أم هي المصادفة فقط؟ القبو يثير الفضول والمغامرة، وأيما معلومة تهم ذلك المكان نتبعها ولو كانت في فم الأسد.

إنها الثالثة بالضبط، التقى ثلاثتهم، سعدان بملابسه الرثة، وابنا العم بعينين حذرتين، تتوجسان رد فعل سعدان، وتترصدان شهيقه وزفيره، ظل الصمت مطبقاً للحظة بين الرجال الثلاثة إلى أن قطعه داوود قائلاً:

-ما وراءك أيها المجنون، إياك أن تلعب بنا.

-لا تصمني بالجنون، وإلا لن أخبركم شيئاً، كنت مجنوناً حينما أخبرتكما...

-لا بأس لا بأس، داوود لا يعني شيئاً سيد سعدان، فقط هلمَّ لنرى معك ما اكتشفت قبل مجيء وقت الفجر والمصلين.

-لقد نطقت رشداً سيد يحي، لكن داوود هذا مجرد مخبول.

ابتسم يحي وهو يدعو داوود بالتجاوز عن الأمر، ثم تحركا خلف سعدان، الذي قصد باب المسجد الخلفي وهو يحمل مفاتيحَ بين يديه...

دخلا وراءه بحذر، تأملاه فوجداه يعرف إلى أين يذهب ويسير، فهو يقصد هدفه مباشرة دون تردد، رأوه يزيح أحد الستائر من أسفل الدرج الذي يقود إلى مئذنة المسجد، انحنى ليلج مكاناً لا يمكنهم دخوله واقفين، دخلوه بانحناءة أيضاً، مشوا فيه على انحناءتهم تلك أمتاراً، ثم توقفوا، ليبادر سعدان بتقليب بعض المفاتيح بين يديه في فتحة باب لا تعرف أحوافها، انفتح شيء ما، فاندهشَ ابنا العم وضحكا فرحاً وذهولاً، تسارعا خلف ظهر سعدان ليريا ما خلف الباب، فوجدا ما كانا ينتظران، درج أفعواني يهبط في أتون بحر من ظلام، أشعلا مصباحيهما الأكثر قوة من مصباح المجنون، ودفعوه جانباً وراءهما، وتقدما بحذر بعيون طماعة ماكرة، وما إن أحسا بنهاية

الدرج حتى هرولا، وصاحا معاً وهما ينظران إلى الطاولة المنقوشة التي سلبتهما عقولهما:

-إنه الكنز، كنز الأجداد، إننا الملوك...

تناسيا أمر سعدان في فرحتهما تلك، وهما يحيطان ويدوران بالطاولة جيئة وذهاباً، ويتأملان الطاولة ونقوشها، فبادر يحي بسؤال داوود:

-هل جئت بالأكواد والشفرات يا داوود؟

-ما كنت لأخاطر بجلبها معي، إنها عند سارة، في خزانة بيتها.

-حسناً ولكن...

لم يكمل يحي كلامه بل أشار بعينين خبيثتين إلى سعدان الذي يقف وراءهما، فهم داوود خبث ابن عمه فاستل خنجراً في الحال، وفي اللحظة التي استدار ليغرسه في بطن سعدان، وجد لكمة استقبلته على الفور، وأسقطته أرضاً، انبهر يحي للأمر وحينما حاول إخراج خنجره، رآها استلت منه، ليلوى ذراعه لياً، ويرمى بجثته النحيلة على أرضية القبو ساقطاً.

نظر داوود إلى ضاربه فوجده عمر، ونظر يحي إلى من رماه جانباً؛ فوجده عباس صديق عمر المخلص، انبهرا الاثنان معاً، وفتحا فاههما، ولم يصدقا

ما رأته أعينهما، لقد خدعهما المجنون فعلاً، واكتشف أمر خطة عمرها عشرون عاماً.

-هذا دأبكم منذ زمن، الغدر والقتل، تخططون بجبن وتضربون بلؤم، وتفتكون بنذالة، شيم الفرسان تفتقدونها، وقيم النبلاء لا تملكونها...

نظرَ ابنا العم وراءهما فوجداه الشيخ خالد، نطق داوود وهو ينظر أرضاً:

- ولكن كيف لهؤلاء الأميين أن يكشفوا خطتي؟ لا يمكن، هنالك خطأ ما!

أجابه يحي وهو يصك وجهه صكاً:

-وما تسمي هذا يا داوود، لقد كشفنا، هؤلاء كانوا يعلمون تحركاتنا!

-هزمتكم عزتكم بالإثم، والتبجح بالمكر، ومعاندتكم على الضلال، كذلك اعتقد الشيطان أنه خير من الإنسان، فكان أن ضل فلُعن، وأخطأ الإنسان فاستغفر فغَفر الله له...

قال كلماته الشيخ خالد وهو يوجه كلماته لابنيّ العم الساقطين أرضاً، العاجزين عن الحراك جبناً، ثم تدخل عمر قائلاً:

-سأنهي فضولكما، لتعلما أنكما لا تزالا غبيان مهما تشيطنتما، وأننا أقوى منكما إن رجعنا لديننا معتبرين، واستخدمنا عقولنا مثابرين، أشعل لهم فيديو الاجتماع المسجل أخي عباس.

-على الرحب والسعة...

مضى عباس في إشعال جهاز الفيديو المرئي البارز صورته على حائط القبو، ثم قال للجميع:

-فرجة ممتعة...

فتح داوود فمه مرة أخرى، وزاد صك يحيى لوجهه، لا مجال للإنكار، الفيديو يدينهم، ولا مجال للفرار، نظر داوود إلى عمر وقال:

-هل خانتني ابنتي عليك اللعنة؟

-لا بل خانتها القطة...

-القطة البيضاء؟ آآآآآه كم كنت غبياً، تلك القلادة في عنقها... ولكن كيف لكم؟ قلادة كتلك لا تبدو قط بأنّ وراءها عين تجسسية؟

أجابه عمر واثقاً:

-البركة في الجيل الحالي والأجيال القادمة، إن عادت من الشتات الذهني والميوعة التي أقحمتموها فيها، فسيعجزونكم بإذن الله.

-لا يمكن، قهرناكم إغراء، أغرقناكم إغواء، أبدنا قيمكم، شتتنا تدينكم، جعلناكم طوائف قدداً، جماعات متناحرة، صاحبتمونا ونحن الأفاعي، وشربتم سمنا وشكرتمونا، وصافحتمونا وعانقتمونا، وخناجرنا تعبث بظهوركم...

نظر داوود حوله حائراً صمت حيناً، ثم استرسل:

- ولكن إنّ وراءنا لقوة، ولو سعيتم لمحاكمتنا فإنا منها لخارجون، ولو قتلتمونا فإنكم لنادمون

-أي نعم، فقتلانا نقيم عليهم الدنيا ولا نقعدها...

قالها يحي مسانداً لرأي داوود، لكنّ عمراً قاطعهما قائلاً:

-نحن لم نركما ولم نكشفكما، وستقتلان بسلاحكما والفاعل سليمان...

-ماذا؟

تساءل داوود قولاً، وتساءل يحي بملامح وجهه الخائفة، ولمحا سعدان وعباس والشيخ خالد يغادرون المكان ويغلقونه عليهم، لماذا تركوا عمر

وراءهم؟ نظروا إليه فوجدوه قد وضع خوذة واقية على وجهه، وبين يديه قنينة غاز يعرفونها، كانا يرددان اللاءات كلحن رتيب، لم يكن عمر يحاول سماع إلا لحناً واحداً، لحن يصوغه الانتقام وينتهي بنقطة موت تعلن النهاية.

حاول العجوزان استدراك الأمر بالمباغتة هجوماً أو الفرار، لكن ما إن حاولا النهوض حتى اكتسح الغاز وجوههم، فعاودوا السقوط مجدداً، وهم يصيحون ويستجدون الرحمة، لكن أنفاسهم أبت أن تطاوعهم على مزيد من التوسل، وما هي إلا لحظات، حتى جحظت العينان، وخرج من الفاهين زبد يعلن موت ابنيّ العم.

خرج عمر من القبو تاركاً جثتين هامدتين داخله، قصد بهدوء مكان الوضوء، فتوضأ، ثم أذن بعدها لصلاة الفجر، وراح يصل صفاً قُطع وسطه، خلف إمامة أبيه الشيخ، أقيمت الصلاة، فكان الخشوع، والشكر والحمد.

****

مكر بمكر

عاد الثلاثة أنفسهم يمرون من ذلك السرداب المؤدي إلى منزل المرحوم صلاح، لكن هذه المرة كان عمر وعباس يكابدون في حمل الجثتين اللتين تثاقلتا، كان حملهما مرهقاً، وبالكاد وصلوا إلى المنزل، أرهقهم الدَّرج صعوداً، والشيخ أمامهم يحمل كيسا عمر وعباس، ويعينهما على فتح الأبواب، حتى دلفوا إلى السطح والعرق يتصبب من أجسادهم صباً، رأوا الشمس من هناك تكاد تنزع لثامها لتظهر للكل سافرة، إنها السادسة صباحاً، وعليهم الإسراع قبل قدوم السكير.

أنزل عمر وعباس الجثتين تباعاً فوق سطح المنزل الذي يقطن فيه سليمان، هبطا بهما الدرج مجدداً، وضعوهما جانباً، وتخيروا غرفة ملاصقة لغرفة نوم سليمان، أدخلا الجثتين هناك، وغطيتا بغطاء وجداه في الغرفة ذاتها، انتقلا بكيسيهما إلى غرفة النوم، أدارا معاً الخزانة التي تركا خلفيتها مفتوحة، أرجعا قنينة الغاز السام إلى مكانها، وهمّا يرجعان الخلفية الخشبية، كانت بعض طرقات المسامير تصدر صوتاً، كانت تزعجهم وهما يطرقانها في ذلك الصباح الباكر.

أنهيا عملهما وجمعا كل متعلقاتهما، بل أزالا أي أثر قد يدل على دخول أغراب إلى ذلك المنزل، استراحا قليلاً، ثم نهض عباس منتصباً وقال:

-هيا يا عمر علينا أن نغادر فوراً.

-ليس بعد...

-ماذا تقول، سيدخل سليمان في أي لحظة.

-اذهب أنت أنا سأراقبه من شرفة هذا المنزل.

-ماذا تقول؟ دخلنا معاً لنخرج معاً، وما جدوى بقائك لمراقبته؟

-هذا السكير هو قاتل محترف، والمجرم دائماً مستعد للفرار، إذا سمع بمجيء الشرطة حتماً سيفر.

-وماذا ستفعل أنت إن بقيت، سألهيه عن عملية الفرار وأشتت ذهنه.

-والله إنك ستغامر وتقامر بالخطة كلها.

-الله المعين فقط اذهب أنت، واحمل الكيسين معك، ستعينني الآن بهذا...

-سأذهب لأخذ الكيسين إلى سطح منزل صلاح، لكن سأعود يا صاحبي...

ابتسم عمر، وقال لعباس الذي همَّ بحمل الكيسين:

-مجنونان والتقيا، أنا هنا أنتظرك فلا تتأخر.

جاء سليمان يترنح بعض الشيء كعادته، وصل إلى الجامع الكبير، تأمله وتأمل صومعته، ابتسم بسخرية، ثم مضى يشق طريقه نحو حي الصفاء، رمقه سعدان، وهب يغير ثيابه على الفور، نزع عنه ثيابه الرثة، واكتسى ثياب الناس المحترمة، أزال الغبار عن وجهه ورأسه، ومشط مشطة أيامه الخوالي، أيام كان في العز والأبهة، انتعل حذاء جديداً، ثم انتصب من مكانه الصفيحي، وخرج بثقة يقصد مركزاً للشرطة ليس بالبعيد عن المسجد هناك.

-أهلاً بالسيد سعدان.

قالها ضابط الشرطة وهو يستقبل سعدان بذهول، لم يصدق أن سعدان الذي عرفه أكثر من شهر بثياب رثة، بحالة الجنون تلك، يعود مجدداً سعدان المقاول الثري المعروف بأناقته المعهودة لسنوات...

-نعم ها قد عدت إليكم كما كنت، بعد أن أكملت مهمتي، مهمة قمت بها وحيداً بعد ليلة البيض المشؤومة، ولله الحمد وفقني الله أن يسقط بين يدي مصادفة مفتاح ذاكرة إلكتروني، هذا المفتاح يحمل بين ثناياه محتوى مرئياً خطيراً، أرجو منكم أيها الضابط أن تروه.

اعتلت دهشة أخرى الضابط وهو يأخذ ذلك المفتاح الإلكتروني من يد سعدان، رأى في وجه الذي أمامه استعجالاً ينبئ بشيء خطير، وعلى الفور أدخل المفتاح في الحاسوب الذي بالقرب منه، وابتدأ في الإطلاع على محتواه، كان المحتوى قد تصرف فيه عمر وعباس، واقتطعا من فيديو يوم الاجتماع كل معلومة تدل على الأقبية والسراديب الموجودة، بل واقتطعا كل فيديو يشير إلى سارة أو تظهر فيه، فلم يظهر الفيديو الذي حازه الضابط إلا كلام داوود والإعلان عن خطة أدرج فيها اسم سليمان، هكذا كان يتفرج الضابط على المحتوى المرئي بعيون مشدوهة نحو داوود وهو يقول فيه:

-إنكم تعلمون أحبابنا أن ما نقوم به عظيم، وقد كنت في اجتماع عالمي الأسبوع الماضي مع إخواننا، وهم يشيدون بأعمالكم، بل ونوهوا بالخطة التي نسير عليها في سبيل الاستيلاء على هذه المدينة التاريخية، فبعد الشتات اجتمعنا في موطننا المركزي هناك، وها نحن نعود منه إلى الشتات في جميع الأنحاء، كي نعيد بناء الوطن الكبير، الواسع الفسيح، فكل ما تخطته أقدام أجدادنا من أراض هو ملك لنا، لا يهم كم بقوا، وكم ظلوا في تلك الأمكنة، فالأرض كلها ملكنا نحن الأخيار...

لاحظ الضابط بعض الانقطاع وامتعض، ليعود استرسال الفيديو من جديد وفيه يقول داوود مجدداً:

-الخطة الثانية هي الخطة التي يقوم بتنفيذها السيد سليمان، وهي خطة اعترتها بعض العقبات، فزوجة صلاح مخلصة ولا يمكن شراؤها، هذا ما تبين من خلال تقريره الأخير، لهذا سنقوم بأعمال الحفر ابتداء من أحد هذين البيتين اللذين اشتراهما السيد سليمان، في الفترة التي تكون فيها زوجة صلاح في عملها تُدرس...

انتبه الضابط إلى تدخل أحد الحاضرين في ذلك الاجتماع، كان يُسمع صوته فقط:

-أراك في الخطتين معاً وحين الحفر، استغفلت الشيخ خالد وصلاح، فكلاهما سيستمع إلى أصوات الحفر وهي تنخر بناءه من الأسفل؟

-تساؤل منطقي سيد يوسف، وجوابه في الخطة الثالثة؛ فهي تنسجم مع الخطتين معاً، فقط الخطتان الأوليتان، سريعتان، أما الخطة الثالثة فهي نوعاً ما بطيئة، ولكن نتائجها مضمونة، الخطتان الأولى والثانية نجاحهما...

انتهى المحتوى المرئي، نظر سعدان إلى الضابط فوجده في حالة ذهول تام، جاحظ العينين، انتبه إلى سعدان وهو ينظر إليه وقال:

-هذا الفيديو بالرغم من أن محتواه غير كامل، إلا أنه يحمل معلومات خطيرة جداً جداً، كيف حصلت عليه؟

-في ليلة البيض الشهيرة، أصبت بنوبة صرع فحسبني الكل مجنوناً، وأي معلومة كنت سأدلي بها كانت ستكون ضرباً من الجنون، لهذا حينما أفقت من نوبة الصرع تلك، مثلت دور المجنون ليسهل عليّ مراقبة هذه العصابة التي رأيتها ليلة البيض وهي تستولي على مالي، ورأيتها من قبل وهي ترش بقنينة رمادية غازاً في منزل جاري المسمى قيد حياته «حكيم»، والذي كتبت تقاريركم أنه مات بسكتة قلبية نتيجة فقدانه لماله، الآن حصحص الحق، بعد أن رأيت المدعو سليمان يسقط هذه الذاكرة الإلكترونية في الطريق، فتلقفتها، لأطلع حقيقة على الخبث والخطورة التي فيها، وقد جئت بها إليكم، وأزيدكم معلومة أخرى، هؤلاء وأعني داوود ويحي على الخصوص، قد تركتهم مجتمعين في منزل سليمان منذ الليلة التي مضت، وربما لا أتطفل على عملك إن قلت لك أنها الفرصة السانحة للقبض عليهم متلبسين في اجتماعهم.

استمع الضابط إلى كلام سعدان باهتمام بالغ، ثم نادى صائحاً:

-أيها الشرطي أخبر العناصر الموجودة في المركز كلها أننا سنخرج حالاً في مهمة خطيرة.

-تحت أمركم سيدي...

مضى الشرطي على عجلة من أمره، ونهض الضابط يلبس سترته ويتفقد مسدسه الوظيفي في خصره، ثم نظر نحو سعدان وأومأ إليه بالنهوض للذهاب معه في المهمة، ففهم الجالس وانتصب متحمساً من غير تردد.

****

صباح القبض على سليمان

أقبل سليمان كعادته، يتصارع مع باب المنزل للدخول، دخل وتأمل المرآة، غازلها بغمزة، ثم مضى مترنحاً بعض الشيء، انتصب كأنه أحس بوجود أنفاس أُخرْ غير أنفاسه في البيت، أرخى سمعه، في لحظة كتم فيها عمر وعباس المختبئين أنفاسهما، رفع أنفه يتحسس الأجواء شماً أيضاً، ظل واقفاً لهنيهة، ثم قال وهو يعود إلى حالة الارتخاء بجسده:

-لا شيء تهيؤات مخمور...

أقبل نحو غرفته، ولمح باب الغرفة المجاورة مفتوحاً بعض الشيء، همَّ إليها، ودون أن يدخلها أوصد إغلاقها، ورجع إلى غرفته، ورمى بجسده على سريره، وما هي إلا دقائق حتى بدأت مسامع المختبئين تسمع شخيره.

-هل سيفعلها سعدان؟ تأخر مجيء الشرطة يا عمر.

همس عباس في أذن صديقه، لكن عمر لم يرد، كان يترقب سماع صوت صافرات الشرطة ليكمل خطته، وبُعيد لحظات سمع بعضاً من صوتها، وهنا همس في أذن صديقه وقال:

- أخرج من هنا وانتظرني فوق يا عباس.

خرج عباس من مخبئه ومضى يعتلي الدرج بحذر، أما عمر فأقبل نحو غرفة نوم سليمان، في وقت كانت صفارات إنذار الشرطة تقترب.

توقف الشخير فجأة، فتح سليمان عينه، إنها سيارات شرطة مقبلة، هل هي عابرة، أم قاصدة؟ وفي اللحظة التي جاء فيها لينهض ويستطلع الأمر وجد أمامه شخصاً غريباً يدخل غرفته...

-من أنت؟... من؟ عمر؟ ماذا تفعل في بيتي أيها الوغد؟

قالها سليمان بغضب شديد وهو يهاجم عمر، لكن عمر أمسك بيده المهاجمة ولواها بفنية ليجبر سليمان على السقوط خارج غرفته...

-أنت مخمور لا طاقة لك على القتال، فلا تحاول مرة أخرى، أنا فار من الشرطة وقد وجدت باب منزلك مفتوحاً فدخلت...

يتأمل سليمان عمر وهو يتكلم، وفي الوقت نفسه أذناه استقرت على سيارات للشرطة قد توقفت فعلاً عند الباب الخارجي للمنزل، نظر وهو ساقط إلى ممر الباب الخارجي هناك، ونظر إلى عمر الواقف أمامه، ثم وقف واعتدل وابتسم، ورجلاه تقودانه بحذر نحو ذلك الممر ببطء وقال:

-ما الذي فعلته أيها الوغد؟ هذه فرصتي للإيقاع بك. أما تلك اللكمة ذاك اليوم فدين لن أنساه.

تساءل سليمان كنوع من الإلهاء لعمر، ثم اغتنم فرصة وجرى فيها قاصداً الباب الخارجي ليفتحه، وفي اعتقاده سيمكن الشرطة من اعتقال عمر، لكن عمر أبى إلا أن يجيبه وهو في لحظات جريه تلك وقال له:

-قتلت والد من كان يريد قتل والدي...

جملة لم يستوعبها سليمان في لحظات الجري تلك، بل أقبل نحو الباب، فتحه وخاطب الشرطة قائلاً:

-إنه هنا، إنه هنا، هيا أدخلوا ألقوا عليه القبض...

-جرى وجرت عناصر الشرطة تتبعه، لكنه وجد عمر قد اختفى، لا أثر له، اندفع نحو الغرفة المجاورة لعله فيها، دخلها، فاصطدم عند دخوله بجثة، بل سقط على جثتين اثنتين، اصفر وجهه، وفشلت أعضاؤه، همَّ بكشف وجوه الميتين، فوجدهما أبوه وعمه، وعادت جملة عمر تتردد في فكره: قتلت والد من كان يريد قتل والدي...

نظر سليمان إلى السقف، ثم صرخ بأعلى صوته: عمااااااار لن أغفرها لك يا عمر...

صرخة سمعها عمر وهو يحاول قفز جدار السطحين برفقة صديقه، فأدرك أن خنجر الخديعة عاد على صاحبه فأوجعه، نظر إليه عباس وقال:

-عهدتك مجنوناً، ولكن ليس إلى درجة العبقرية في الجنون.

-لقد فعلناها يا عباس، أسقطنا هذه العصابة بالمخططات ذاتها التي أوقعونا فيها لسنوات بل ولقرون، واليوم لنا بعد أن كانت الأيام الخوالي علينا.

شاهدهما الشيخ خالد والفرح يعلو محياهما فقابلهما بكلمات وقال:

-بارك الله فيكما شباب الخير، عاقبنا دفاعاً والسن بالسن والبادئ أظلم، إنما الخديعة في الحرب جائزة، وحين تضع الحرب أوزارها، ارموا بالخديعة جانباً فذاك هو الانتصار الحقيقي، الانهزام يا أبنائي أن تتجذر الخديعة وتسري بعروقها فينا، فتغدو قيماً نرعاها في معاملاتنا وفي أحوالنا وبين أحبابنا، وتلك بداية الانهزامات... الانتصار الحقيقي هو حينما يرجع أهل الحيين جسداً واحداً في أُلفةٍ ووداٍد، يعرفون عدوهم، ويحذرونه في كل الأوقات، فالعدو الظاهر بإذن الله انقضى مؤقتاً، والعدو المستتر باقٍ ولن يتركوكم، فاحذروا الغرور واحذروا شياطينكم.

الجلبة في الحي تزداد، وجمهور الفضوليين يتكاثرون حول بيت سعدان، إنه المالك القديم للبيت، ودأب السكان على تسميته بهذا الاسم، لا يعرفون

سليمان كثيراً هذا الوافد الجديد، الذي أضحى بين ظهرانيهم وفي مدة وجيزة قاتلاً وسفاكاً للدماء، بعد أن كان لفترة وجيزة كريماً ودوداً، لقد قتل داوود ويحي، الوشوشات تتناسل والشائعات تكبر، وسعدان داخل البيت يُقبل نحو سليمان المُصَفَّد اليدين، الخائر القوى، المندهش مما يجري، لعلها سكرة الخمر، لا بل هي الحقيقة ما يعيشه، استغل سعدان انشغال الشرطة بالبحث والتنقيب داخل البيت، فدنا منه وقال:

-سأستعيد البيت الذي لوثته برائحتك النجسة يا سليمان...

-اللعنة عليك أغرب عن وجهي هذا ما كان ينقصني...

-كيف جاءتك خطة عمر؟ لا تصرخ فلا أحد سيصدقك، مخمور يهذي، وفوق هذا أنت متورط في هذه القضية، غارق فيها، كل الأدلة تدينك، أنظر ها هم وجدوا أداة الجريمة "قنينة الغاز السام"، وسيقومون بعدها بمعاينة جثة صالح وقبلها جثة جاري، ستكون متهما بأربع يا...

-ابتعد عني يا لعين...

-مسكين وبائس أنت يا سليمان، فوق اتهامات القتل أضيف إليك معلومة أخرى لوجه الله، أنت متهم بالتآمر مع عصابة دولية من أجل تهديد سلامة هذه المدينة، فيديو اجتماعكم الأخير في ذلك المستودع قد سُرب...

-ماذا تقول اجتماع؟ كنتم على اطلاع عليه أيضاً؟ آآآآه هلكت...

صك سليمان وجهه وغرق في دوامة من النحيب، فقام عنه سليمان مبتعداً خاصة حينما رأى الضابط وكأنه يقبل نحوه، وقال لسليمان كلمات أخيرة:

-أنت هالك فعلاً، فعصابتك الدولية ستعتبرك فاشلاً سيقتل أو خائناً سيباد... اللعنة عليكم أجمعين.

أقبل الضابط نحو سعدان، ووجهه يتهلل بشراً، أخذه من يده، وخرجا إلى خارج البيت:

-مهما شكرت فلن أوفيك حق شكرك سيد سعدان، وحفاظاً على سلامتك لن أذكر في المحضر أنك أنت من أحضر دليل اتهام هؤلاء.

-تصرف في المحضر كما شئت، فلي ثقة بك، وهنيئاً لك الترقية من الآن، فقط ساعدني بما لديك من معارف، ساعدني على استرجاع بيتي، طالما أن أهلي قد باعوه وأنا في فترة جنون، وكذلك باعوه تحت تأثير وضغط التدليس لأشخاص مجرمين.

-كن مرتاح البال سيد سعدان قريباً جداً ستعود إلى بيتك، وعد مني، حتى عقود البيع ها هي ذي في يدي، الآن سآخذ هذا المجرم لأعود لإلقاء القبض على زوجتيّ داوود ويحي لاستجوابهما وتفتيش بيوتهما...

-إذاً أتركك سيدي الضابط في عون الله وحفظه، لكن ماذا عن الشباب وبعض الآباء المتهمون بالسرقة والتهجم على أملاك الغير؟

-طبعاً القضية ستعاد من جديد، فهناك وقائع استجدت، وهم مبرؤون من السرقة الآن، تبقى مسألة التهجم أظن أنهم استوفوا المدة الكافية، ومراعاة لظروفهم ما أحسب القضاء إلا مفرجاً عنهم قريباً.

-إنها فرحة الحيين معاً، نريد العودة كما كنا في تراحم وتواد، أعانكم الله.

لو كان العُمر يعينه، لتراقص فرحاً في الطريق، هكذا كان إحساس سعدان، وهو يفارق جمهور الفضوليين، الذين سألوه فأجاب عن بعض الأسئلة وترك الأخرى معلقة، وضح معالم خطة الأعداء الكبرى، وأنهم لقوا جزاءهم، ودعا الجموع إلى ترك الأحقاد بينهم وبين حي الهناء، والتسامح بينهم، والجامع هو خير مكان، دعاهم لجعل يوم الجمعة المقبل عيداً تحتفل فيه القلوب بصفائها وهنائها، هكذا دعاهم السيد سعدان، الذي فرحوا به وبشفائه، ورحبوا بكلماته المؤثرة، هتفوا باسمه كثيراً، وهو كذلك في أوج الفرحة، إذ لمح بين الجموع تلك النسوة المطرودات من حي الهناء، لمحهن بلباسهن الذي أجبرهن على ارتدائه الهالك يحيى، أقبل نحوهن، وقد رآهن يستعدن حياءهن بعدما سمعن ما جرى، خاطبهن وقال:

-أيتها النسوة عدن وقرن في بيوتكن، والبسن لباسكن الذي يجعلكن غاليات، وإنكن ستشتغلن شغلاً يليق بمقامكن الغالي، وأنا من سيكفل لكن هذا، فلنستغفر ربنا فكل إنسان خطاء.

التفت النسوة يشكرن السيد سعدان على معروفه النبيل، ورحن مسرعات، يتسابقن نحو الحشمة والوقار.

****

سقط القناع

استفاقت سارة من نومها، كان يبدو عليها الانزعاج، فهذه الليلة كانت غريبة عليها، هواجس وكوابيس لم تفارقها طوال الليل، تتذكر كيف اهتز قلبها اهتزازا في الليل، إنها تشعر بشيء ما قد حدث أو سيحدث؟ غسلت وجهها، واستعادت بريق جمالها، تأكدت منه في المرآة، عدلت تسريحتها وما إن أتمتها حتى سمعت طرقاً في الباب... من يكون هل هو عمر مجدداً؟ إذاً هي هدية أخرى جاء بها هذا الأخرق.

قفزت من مكانها، وهرولت، فتحت ولم تجد الهدية بل وجدت عمر وكأنه يريد الدخول بغير إذن، أفسحت له الطريق، فدخل، وأغلقت خلفه الباب وهي تقول:

-أراك ما عدت تخاف دخول بيتي إذاً؟

-نعم فقد أزيل الغموض كله يا سارة، قد سقطت الأقنعة.

-جميل تقدم رائع...

-بل يوم وأيام رائعة ستأتي.

استغربت سارة من إجابات عمر الملغزة، ونظرت إليه بتمعن وسألته:

-ما سبب كل هذه السعادة التي أنت فيها.

-سبب سعادتي هو هذا الفيلم المرئي الموجود في هذه الذاكرة الإلكترونية، هل لديك قارئاً لها؟

-نعم هناك في غرفة نومي، ادخل لنرى ما الذي أسعدك، أنا آتية أجلب بعض العصير...

دخل عمر الغرفة، وجد ما يريده هناك في وسط الغرفة مركوناً، أدخل الذاكرة في مكانها لتشغيل ما فيها، ثم استوقفها إلى حين مجيء اللحظة المناسبة.

أقبلت من ورائه سارة وهي تحمل قنينة من عصير وكأسين، وجدته لا يزال واقفاً ولم يتخذ وضعية الجلوس فسألته:

-لا تزال خائفاً ومحتاطاً وكأن سارة ستأكلك.

-لا فقط أود إخبارك بما يجري هناك في حي الصفاء.

-حي الصفاء وما شأني به؟

-وقعت جريمة كبيرة، وجدوا جثتي عجوزين في منزل شاب...

تسمرت سارة في مكانها، وقطبت بحاجبيها وقالت:

-أخبار كهذه تخبرني بها صباحاً، حقيقة أنت بعيد كل البعد عن الرومانسية، ابتعد دعني أضع العصير.

-العجوزان المقتولان هما صاحبا الدكانين في الحيين داوود ويحي، والقاتل سليمان.

فشلت يدا سارة فنزلت الصينية بما فيها من قنينة وكأسين، لينكسر الزجاج وينسكب العصير على الأرضية انسكاباً، كان عمر يلاحظ سارة وهي تنهار، يلاحظها وهي تحاول إخفاء مشاعرها، نزلت واستدارت بظهرها تمثل دور الماسح للأرضية وقالت وهي تغالب أنفاسها:

-عذراً... لكن أمتأكد أنت مما تقول؟

-نعم، والشرطة في طريقها إلى زوجتيّ الهالكين.

-لماذا؟

-الأمر أكبر مما تتوقعين...

ضغط عمر على جهاز التحكم لتشغيل الفيديو المرئي الذي وضعه، سمعت سارة صوت أبيها، ففغرت فاهها، واستدارت ناحية الشاشة، ووجدت أباها يخطب، إنها خطبة الاجتماع، نظرت إلى عمر بعين دامعة، وقالت:

-لا لا يمكن؟ من كان هناك؟ هل أنت؟

انحنى عمر رويداً وهو يحمل القطة البيضاء التي جاءت لتلعق العصير المنسكب، حملها بين يديه، وقال بعد أن انتصب انتصابة الواثق المنتصر:

-لم أكن أنا، بل كاتي...

لمحت سارة عمر وهو يحك بأصبعيه قلادة القطة البيضاء، فأمسكت بيديها قطعة زجاج، وراحت مهاجمة الواقف أمامها، لكن عمر كان كمن ينتظر ردة فعلها، فرمى بخفة القطة جانباً، وأمسك بيد سارة مرغماً إياها على ترك الزجاج الذي أدمى يدها، واقترب برأسه من أذنيها وقال:

-كفاك تهوراً، وفكري في نجاتك، فإلى حدود الساعة أنت خارج دائرة الاتهام ما لم ينطق سليمان اسمك، انظري للفيديو وتأمليه فأنت لا تظهرين فيه، والآن إما أن تبقي هنا تنحبين حتى تأتيك الشرطة، وإما تفري بجلدك فوراً...

-ولم تريد نجاتي أيها الوغد؟

-الشفرات والأكواد، التي تركها لك أبوك، أريدها حالاً لأتركك تفرين، وإلا فإني سأخرج بقايا الفيديوهات التي أملك، فيديوهاتك وأنت برفقة والدك داوود في السيارة وأسلمها للشرطة.

نظرت إليه سارة بعيون تفيض بالدمع وتشتعل بالحقد وقالت:

-اتركني.. اتركني أيها القاتل، لقد انتصرت حقاً كنت حمقاء حقاً، لكنك ستندم، ولن تتركك جماعتنا تنعم بالأمن والصفاء والهناء.

أخرجها عمر من الغرفة التي بها الزجاج، وأخذها نحو بهوٍ خالٍ من أي الأشياء التي قد تتهور بها ضده، ثم خاطبها:

-المسألة ليست مسألة انتصار وانهزام، ففي لحظة كنت أنت من سينتصر وقد حققت تقدماً، ولولا إرشاد الوالد، والصدف التي هيأها لي الرحمن لمعرفة حقيقتك أيتها الأفعى، لكنت أنا من سيفقد أبي، ولكنت في موقفك هذا ضعيفاً، على الأقل أنا أترك لك مجالاً للفرار، لا أريد لهذا الجمال الأذية، آذيتني بإغراء وإغواء، وها أنا أرد إغواءك ندماً وإغراءك حمقاً، أخذك غرورك بعيداً، وظننت أنك بجمالك تستعبدينني، لست كما الرجال الذين عرفت في عالمك، أنا عمر لا أبيع ثوابتي قيمي وأخلاقي بغواية ولا مال، قد أخطئ لكن الندم والإرشاد يعيدني عمر القوي بثوابته، لا عمر الذي تتلاعب به امرأة.

-فتقوم بقتل أبي، عمي، وسليمان؟ أنت شيطان ما كنت أحسبك هكذا، حذرني منك والدي مراراً لكني لم أستمع لنصيحته.

-أنا عبد يجتهد في طريق الرحمن، واجهتمونا بمكر، فمكرنا، ولأن مكرنا هذا أساسه متين، انتصرنا، فلو كان مكرنا يهدف لإحقاق نزوات شخصية، لكنا لا نزال ذواتاً غبية بين أيديكم.

-ولم تريد الأكواد والشفرات إن كنت لا تريد خدمة نزواتك؟

-من تعلم لغة قوم أمن مكرهم.

-حتى وإن سجنت هنا، فسأخرج...

قاطعها عمر بضحكاته ساخراً وقال:

-لقد أثرت عليك الصدمة وأصبحت غبية، أنت في عرف جماعتك وعصابتك الدولية خائنة الآن، والخائن في عرفكم ميت، أنت تضيعين الوقت، أعطني الأوراق لأتركك تسافرين عند أول طائرة.

استجمعت سارة قواها وعاودت الدخول إلى غرفتها، وقصدت خزانة مغروسة في الحائط، فتحتها بأرقام إلكترونية، ثم أخرجت منها سجلاً كبيراً يبدو قديماً، وناولته بحنق إلى عمر، وقالت:

-هذه الجولة لك، لكن الحرب لم تنتهِ، سأنتقم ولو بعد ثلاثين عاماً، إنه وعد امرأة مكلومة في والدها المقتول وأمها التي ستسجن، سأفر ليس جبناً، بل كي أنتقم منك، وإني أعلم أنك تحبني، وستتذوق يوماً ما ثمرة الحب القاتلة.

-اهربي الآن فلم يتبقَّ لك وقت تضيعينه، وسأستعيد حبيبتي كاتي، كانت عندك مجرد ضيفة، وداعاً.

-حقير... وهذا أول حرف من اسمك سأكتبه في ذراعي بالدم... كي أعود يوماً لكتابته بدمك.

تناولت سارة قطعة صغيرة من زجاج، وكشفت عن ذراعها، وكتبت فيه حرف "العين"، تقاطرت دماؤها، نظر إليها عمر وقال:

-مجنونة أنت، أنت في موقف بائس، انهزم جمالك، وانتصر عمر صاحب الكتاب المقلوب، أو الأخرق كما كنت تصمينه حينما كنت تختلين بأحبابك، وداعاً موتي في حنقك وحقدك.

****

بعد خمسة وعشرين عاماً....

الكل وقف مصفقاً لهذا الدكتور الذي أسهم في نهضة المدينة ورفعتها، هذا الذي برفقة صديقه الدكتور عباس جعلا المدينة قوية مزدهرة، كان يتمنى لو كان معه والده الشيخ خالد، الذي وافته المنية منذ أعوام، كان يلحظ جموع الحاضرين وهي تصفق له بامتنان، كان من بين المصفقين طبعاً صديقه الوفي، الذي لاحظ وجهه وهو يميل لترك قطار الشباب نحو قطار الشيوخ، لكنه تغير عن ذلك الشاب الذي يترك شعر رأسه ولحيته تنبت دون اعتناء، إنها الزوجة قد غيرت طباعه، وصار أكثر تنظيماً بين حلاوة الحياة وفضول معرفتها.

كذلك هو، يعلم أن تغييراً بدأ يشمل ذاته، لقد بدأ المشيب في غزو شعره وانتصر، رغم أن عمر في قوته وذكائه، لكن المشيب علامة تنذر بأن القوة تسير نحو المنحدر وعليه التمهل، السيد سعدان حاضر لم يمنعه الكرسي المتحرك الذي صار يتحرك به، لم يمنعه من حضور هذا التكريم، تكريم هذا الرجل الذي كان سبباً في عودة ملكيته لداره العزيزة عليه هناك في حي الصفاء، هذا الرجل الذي آلف بين سكان الحيين وأرجعهما كما كانوا، هذا الرجل الذي جعل الجامع الكبير منارة علمية للمدينة كلها، فالمدينة كلها

تشيد بهذا الشهم النبيل، وكم طالبته بأن يكون عمدتها لكنه رفض مراراً وتكراراً، وسلمها لسعدان، الذي تولاها لسنوات ثم تركها بعد عجز رجليه.

ظل عمر يرمق جموع الحاضرين، إلا أن استقرت به عينيه على وجه امرأة تضع حجاباً، كأنه يعرفها؟ أو سبق له رؤيتها في حياته، رآها وهي تغادر مدرج المحاضرة خلف أحد الشباب، ظل يتتبع المرأة بعينيه، إلا أن جاءت إليه جموع الحاضرين تطلب صورة تذكارية معه، انهمك عمر وصديقه عباس في أخذ الصور التذكارية مع جموع الناس المتحلقة حوله، وظل على هذه الحال حتى أتاه شاب أشقر في ريعان الشباب قد جاوز العشرين بسنوات، واقترب من أذن عمر وأخبره هامساً:

-أمي بالقرب من مكتبك تريد مقابلتك.

تأمل عمر الشاب ملياً مرة أخرى، وأدرك أنه ذاك الشاب الذي تبعته تلك المرأة، صاحبة النظارة، وذات الفستان الأسود، أومأ إليه عمر بالاستجابة إلى طلبه، واعتذر للحضور بأنه سيعود إليهم خلال لحظات، مشى عمر خلف الشاب، وهو لا يعرف لماذا استجاب لطلب هذه المرأة، لعلها تحمل سراً ما، هناك فضول جعله يتتبع الشاب ولو إلى الجحيم، فقط ليعرف كنه تلك المرأة.

اقتربا من المكتب، ولمح المرأة تنتظر، فتح عمر الباب دون أن ينظر إليها ودعاهما للدخول، دخلوا، فنطقت المرأة لتجعل الدهشة مرسومة على محيا عمر:

-"كاتي"

استدار عمر مشدوهاً ووجد المرأة نطقت اسم "كاتي" وهي تنظر إلى صورة قطة بيضاء معلقة في مكتبه، وقبل أن ترجع به الذكريات استبقت المرأة موجهة أمراً لابنها وقالت:

-سلم على أبيك يا ديفيد

-سارة؟

نطقها اسمها عمر في وقت كانت فيه المرأة تنزع حجابها، ونظارتها السوداء، فيما ابنها أقبل نحوه يحاول عناقه، لكن عمر أمسك الابن من ذراعيه محاولاً إبعاده، وهو ينظر مستفسراً سارة التي قالت له:

-ألا تريد معانقة ابنك؟ كنت حاملاً منك يوم هروبي يا عمر، كما سبق وأخبرتك في تلك الرسالة التي أرسلت رفقتها تقريراً ببصمة المولود الوراثية، كان ذلك منذ سنوات طويلة، أربع وعشرون عاماً... فهل تأكدت من أنه ابنك؟ هل طابقت خريطتك الوراثية معه؟

-هذا هو الابن الذي حملت به مني؟ لكن أخبارك انقطعت منذ تلك الرسالة؟

-كنت متأكدة أنك ستتأكد من هذه النقطة، فهل ستحرم ابنك من معانقتك أيها الأب الحاقد؟

أرخى عمر يديه الماسكتين بالشاب، فاقبل ديفيد نحو أبيه معانقاً، تردد عمر في العناق أيضاً وجعله من جانب واحد، لكن في لحظة أحس بعاطفة الأبوة، وفي اللحظة التي هَمَّ فيها هو الآخر معانقاً لابنه، أحس بألم في جنبه، وبشيء ما يخترقه، ترك معانقه ودفعه بعيداً، وولى إلى الخلف وهو يمسك بجرحه، ثم جلس على كرسيه بهدوء يتوجع، وهو يتأمل ما يجري حوله، رأى الابن يسلم خنجراً إلى أمه التي قالت له:

-أحسنت بني ولد مطيع، الآن قد تحررت، اذهب وعد إلى موطنك وتمتع بشبابك فقد تحررت من الحقد والانتقام.

-أمي ولكن ألن تأتي معي؟

-لا يا بني اذهب وعش حياتك بعيداً.

-حسناً الوداع

سعل عمر وهو يمسك بجرحه، وقال:

-جعلت ابنك بلا مشاعر مجرد آلة لتحقيق الانتقام، سلبته حياته كل هذه السنوات، حتى وداعه لك كان بارداً باهتاً، لكن ما أظن ضربته هذه ستميتني، لم تعلميه قوة الضرب أيتها الحاقدة.

ردت سارة وهي تتأمل الخنجر:

-لا تقلق الخنجر سام، وما هي إلا عشر دقائق وتفارق الحياة بعدها، وهذا الابن استعبدته على فكرة الانتقام منك، وكان فك رقبته رهيناً بقتلك، قتلك فانتهى الأمر.

ابتسم عمر وقال:

-كنت أنتظر هذا اليوم، وكان عليّ أن أنتظر خمساً وعشرين عاماً، لأفهم ما قصدت بتلك القولة التي رددتها ذلك اليوم: ستتذوق يوماً ما ثمرة الحب القاتلة.

-نعم ذلك اليوم الذي حملت فيه تلك القطعة الزجاجية وكتبت بها أول حرف عربي من اسمك هنا في ذراعي.

لاحظ عمر سارة وهي تكشف عن ذراعها، أصبح ذاك الجرح القديم بارزاً يعبر عن حرف "العين" وكأنه وشم، ثم لاحظها وهي تمسك الخنجر الذي يحمل دمه، وتعاود تمريره على الحرف الموشوم على ذراعها بقوة، كان الدم

يتقاطر على المكتب، حاول عمر النهوض لمنعها لكن لم يستطع، فرجلاه لم تعد رجليه بل حجراً لا يتحكم فيه.

-أيتها المجنونة ما الذي تفعلينه؟ الخنجر مسموم كما قلتِ...

-نعم سأرافقك، ألا تحب مرافقتي لك في موتك؟ ما فائدة بقائي الآن، حرمتني من العائلة، وجعلت العشيرة تنبذني وتطلب دمي، فقط الانتقام منك من كان موطني، الآن تلاشى الانتقام وانتهى الحقد، وتحررت منه، صرت بلا موطن ولا جنسية يا عمر.

عمر يكابد آلامه التي أضحت تنتشر في الجسد كله يرد بصعوبة ويقول:

-لم تغادري تفكيري يوماً، كنت دائماً حاضرة، تزوجت وولد لي أبناء وبنات، لكن كنت دائماً حاضرة، رغم أنك عدوة حاقدة.

-إنه الحب، وقد تعلمت منك درساً، أن نسبق مبادئنا وثوابتنا على عواطفنا وحبنا، وطبقته فيك اليوم، لقد احترمتك على هذا، بل ازددت حباً، وبحجم الحقد والكره المتزايد كان يتزايد حبي لك كل يوم، ولم أكن أعلم لم أحبك؟ وأنت قاتل أبي عمي وسليمان... ولكن ماذا لو كنت سباقة في قتل أبيك، هل كنت ستقع فيما وقعت؟

-كنت سأقتلك على الفور حتى لا أسقط في هذا التناقض، بين كره يزيد وحب يتضاعف.

-أنا حاولت ذاك اليوم قتلك بذاك الزجاج ولم أستطع... آآآه الموت يقترب...

سقط عمر من على كرسيه على الأرض، وهو يتوجع ألماً، نظرت إليه سارة مبتسمة متوجعة وقالت:

-سألتحق بك...

فسقطت هي الأخرى من على كرسيها، لتجد نفسها بجانب عمر وجهاً لوجه، مد عمر يده نحوها، فمدت هي الأخرى يدها نحوه، تشابكت أيديهما وقالت له بأنفاس متقطعة متوجعة:

-هدية القطة البيضاء جعلتك تظفر بقلبي ولم يبقَ إلا العقل متعلقاً بسليمان، ولما سمعت عن انتحاره في السجن، هجره العقل أيضاً وتعلقت بك بكل جوارحي وروحي، بطيبتي وشري... سأرافقك في أخراك أليس كذلك، هناك نعيش بلا أحقاد ولا عداوة، أليس كذلك؟

-ليتك ترافقيني، فأنا أحسب نفسي شهيداً، وأنت ستموتين منتحرة على كفر...

-سأسلم لأحرمك الشهادة.

قالتها وهي تضحك ضحكات تختلط بدموع الألم، وكذلك ضحك عمر وقال:

-صرت تعرفين ديننا جيداً يا سارة.

-نعم اطلعت عليه بإمعان، أردت فهمك من خلال دينك الذي كنت تعتز به، ويا ليتني ما فعلت، أعجبت فعلاً بدينكم، ربما لأني ابتعدت عن عشيرتي فقرأت قرآنكم وتراثكم بعيني وعقلي لا بعيونهم وعقولهم، تلك العداوة الكبيرة للإسلام والمسلمين تلاشت، واختزلتها فقط فيك أنت مع مرور السنين، ربما لولا حافز الانتقام منك، لكنت قد أسلمت.

صمت عمر للحظات يكابد آلامه، ويتجمع قواه وقال وهو يمسك بيد سارة وينظر إلى عينيها:

-الآن وقد انتقمت، فما الذي يمنعك من الإسلام؟

-وهل يجوز أن أكون مسلمة فقط في بضع دقائق أو ثوان؟

-قولي خالصة مقتنعة كما سأقول لعلّ الله سبحانه يغفر لك، فقد سامحتك من كل قلبي قولي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

كانت آخر كلمات يقولها عمر بعدما نظر إلى السقف، وكأنها ابتسامة على محياه، وجدت سارة يدي عمر قد تثاقلت فعلمت أنه أفضى روحه إلى بارئه، استدارت ونظرت إلى سقفها وقالت:

-أعلم أنك أنت الواحد الأحد منذ زمن ومقتنعة بهذا وأشهد به، وأشهد أن محمداً رسولك ونبيك، منعني الحقد ومطاوعة العشيرة من الإيمان بالإسلام ديناً، واليوم قد أعلنت إسلامي في آخر لحظات حياتي فإن كنت صادقة توفني مسلمة وأرفقني بمن أحب، وإن كنت كاذبة فإني أستحق ما وعدت به الكافرين الكاذبين.

تراخت أعضاؤها، وتثاقلت أبصارها، وابتسمت ثم أرخت عنقها ونامت...

بعد خمس وعشرين ساعة...

فتح عمر عينيه، وجد المكان فسيحاً، ما هذه الأريحية التي يتمتع بها شخص مات ومن المفروض أنه دفن، وهيل عليه التراب؟ هذا ليس بقبر؟ هذه غرفة؟ هل هو ميت؟ ما هذه اللخبطة؟ ما هذه الحقيقة الغامضة التي أضحى فيها؟

نظر عن يمينه فإذ به سرير آخر، وجد صاحبه بالكاد بدأ يتحرك، كأنه للتو نهض هو الآخر من موته؟ من غيبوبته؟ من نومه؟ لا مصطلحات ولا مفاهيم تسعفه للفهم الآن، ومن يكون هذا الذي عن يمينه؟ أجاره في المقبرة؟ أم جاره في المشفى؟ أم جاره في ثلاجة الموتى؟

كشف الجار عن وجهه، فكان امرأة، امرأة في الأربعينيات من عمرها، شقراء لا تزال تحافظ على جمالها الباهر، اندهش عمر اندهاشاً، وصاح بصوت عالٍ:

-سارة، سارة ما الذي يجري؟

كانت سارة بالكاد تحاول فتح عينيها، ولكنها لما سمعت صوت المنادي، انتفضت من سريرها انتفاضاً، هل هي في ممات أم في حياة أم في برزخ أم في حلم؟

-عمر ما الذي يجري؟

-لا أدري أكاد أجن! هل قتلني ابنك؟ ما كان في ذاك الخنجر سم أم شيء آخر؟ حتى الجرح تمت ضمادته، أغلب التفسير نحن لا نزال أحياء.

-هل هذه لعبة من لعبك يا عمر؟

-كيف ألعب يا حمقاء؟ أليس الابن ابنك؟ عانقني وطعنني، بل أنت من تلعبين؟ ماذا وضعت في الخنجر؟ هل تم اختطافي أم ماذا؟

قالها عمر بغضب بعد أن قام من سريره، لكنه أحس بدوار، فعاد إليه، نظرت إليه سارة فلمحت فيه صدقاً، وأنه فعلاً لا يمثل؟ وكيف له أن يمثل وابنها من ربته هو الذي طعن أباه أمامها بذلك الخنجر السام، وقد رأت فعلاً كيف سقطا معاً، وماتا؟ أو كأنهما ماتا، لكن ما الذي وقع؟

انفتح الباب ليدخل تباعاً مجموعة من الأشخاص على الحائرين، كان الناس يحملون وروداً، نطق أحد الداخلين وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

-حمداً على سلامتكم، أيها العدوين العشيقين.

-عباااس!

قالها عمر وهو يحط يديه على رأسه من فرط الصدمة، وزادت الصدمة حينما لمح زوجته فاطمة مقبلة مع ابنه خالد وابنتيه، بل ومع ‹‹ديفيد›› ابنه من سارة! أما سارة فهي الأخرى صاحت مندهشة:

-ديفيد!

-بل داوود يا أمي...

-عليك اللعنة، هل أنت ديفيد من ربيت أم شخص آخر؟

-من شابه أباه فما ظلم

قالها عباس وهو يضحك ضحكاً، ثم أردف قائلاً:

-سأرحم فضولكما كي لا تُجنا من كثرة الصدمات، فاستمعا إلى هذه القصة، التي أنطلق فيها من جزئها الثاني، حيث فرت سارة وهي حامل من عمر، فرت من انتقام عشيرتها، فرت من الكل، وقاست كثيراً، حتى استقرت ببلاد ما، وضعت مولودها، وأرسلت رسالتها إلى عمر، تخبره فيها أنها وضعت مولوداً منه، وأنه إن أراد التأكد فالوثائق أمامه، تأكد عمر وأدرك فعلاً أن المولود منه، حاول معرفة مكانيهما ففشل، بعدها بشهور تزوج عمر من فاطمة، فاطمة زوجة المرحوم صلاح، هذه المرأة الصالحة كانت تعتقد أنها عاقر، لكن حينما تزوجت عمر ولدت له ابناً هو خالد وبنتين توءمين،

عاشا سعادة وحباً، لكن فاطمة كانت تدرك أنها تملك نصف قلب عمر، فيما النصف الآخر كانت تملكه سارة، مضت السنين، وفي الجهة الأخرى كانت سارة تربي ابنها ديفيد على الحقد، وأن ليس له أن يعيش طفولة ولا أن ينعم بشباب إلا بعد أن يقتل أباه عمر، كانت دائماً تجعله يتتبع أخباره، كانت شهرة عمر بدأت في البروز، فعمر استطاع أن يغربل ذلك الكنز الموجود في قبو المسجد، غربله توازياً مع دينه وثوابته لا خروجاً عنهما، غربله بصورة جعلته يأخذ فقط ما يفيده في دنياه علماً وتعلما، ويُبيد كل ما حُرف وما زُور وما جُعل طلسمات شيطانية.

استفاد عمر واستفدت أنا عباس، واستفادت المدينة كلها، فالمدينة أصبحت منارة إسلامية، قوية عزيزة، ديفيد أو داوود، في تتبعه لأبيه من أجل قتله، وجد في نفسه نداءً يستفزه لمعرفة الحقيقة، وبحثها، فبدأ ببحث الحقيقة انطلاقاً من مكتبة أمه، التي كانت مكتبة تعج بالكتب عن الإسلام وأهله، تأثر بهذا الدين قبل أن تتأثر به أمه، أخفى تأثره، وحاول معرفة أبيه عن قرب، حاول معرفته انطلاقاً من محيطه الذي يعيش فيه، فكان لقاؤه منذ ثلاث سنوات مع إخوته وخاصة خالد، كانت بينهما سجالات ومناطحات، أصبحت بعدها مناصحات، وأخوة حقيقية بعدما مال داوود إلى الحق، واعترف بكنهه، وأنه أخوه الكبير من أبيه، اعترف بأن أمه برمجته منذ الصغر لقتل أبيه حتى يتحرر ويعيش كينونته.

جاءني خالد وصارحني بهذا السر، وطلب المعونة مني ووعدني بعدم إخبارك أخي عمر، التقينا ثلاثتنا، وخططنا أن يوم تلك المحاضرة سيكون يوم مسرحية مقتلك، استبدلنا الخنجر السام بآخر يشبهه، ووضعنا مكان السم مادة منومة وموجعة، وكنا في غرفة مجاورة نراقب، أنا وابنك خالد وزوجتك فاطمة...

-وضعت كاميرا تجسس في مكتبي أيها اللعين؟ أين؟

عمر يقاطع عباس وهو ينظر إلى الأرض، فيضحك عباس ويجيب:

-وضعتها فقط صبيحة اليوم في برواز صورة "كاتي" القطة البيضاء، كتب لصورتها أن تتجسس عليكما معاً هذه المرة...

ابتسمت سارة رغم اختلاط الأحاسيس في دواخلها، الانتقام لم يكتمل، والابن خانها ومال إلى والده، هي تعلم أنها أسلمت، لكن هل لا يزال الحقد مشتعلاً والانتقام قوياً تجاه ذلك الجالس في السرير هناك، هذا ما أرادت معرفته، وهذا ما جعل دواخلها تتصارع، كان هناك خليط من الدمع، هل هي دموع ألم أم حسرة، أم لعلها دموع فرح، مفاجأة الابن كانت كبيرة، لقد قالها عباس من شابه أباه فما ظلم، استطاع خداعها كما خدعها أبوه من قبل، لم يظهر أحاسيسه قط، كما فعل بالضبط عمر... لكن هل ما فعله خيانة أم نُبل؟

عمر لا يزال في موضع اللاشعور، هل يفرح لنجاته ونجاة سارة؟ أم يتحسر على حقد لم ينتهِ بعد، فهو لم يسترح من امرأة سيعود ليزعجه انتقامها من جديد، هذا في لحظة كان لموته المؤقت راحة من حمى هذا الانتقام وانتظاراته، نظر إلى زوجته فاطمة وابنتيه وسألهم:

-وماذا عنكم متى علمتم بهذا المخطط؟

أجابت فاطمة:

-اسمع أيها الزوج العزيز واسمعي يا سارة، قد علمت بالخطة منذ أسبوع، وكم فرحت بها، بل وأيدتها، سلامة لكليكما، أعلم حرقتك يا سارة على أبيك، وعلى أمك التي توفيت في السجن، وعلى عمك، وكذلك احترقت أعماقي حينما قتلتم تواطئاً زوجي صالح، أعلم أنك كنت معهم ولم تعارضي عملية القتل، لكن مذ رأيتكما البارحة وأنتما تتوجعان وتعتقدان أنكما مقبلان على الموت، مذ رأيتك تسلمين، وتقولين ذلك الرجاء إلى مولاك، تلاشت كل بقايا الحقد حوالي، بل أحببتك حب الأخت لأختها، أعجبني ذلك العشق الذي نشأ بينكما والذي ولد وردة من رحم الحقد والعداوة، عشق أحببتِ فيه عمر وهو عدوك، وهذا هو الحب أن تعشق نفساً ولا تعرف لم تحبها، احترمتكما والله، فكلاكما ضحى بالعشق من أجل خلود المبدأ والثوابت، والأن أراكما صرتما في ثوابت واحدة، فإن

جب الإسلام حقدك لعمر يا سارة، فمرحباً له زوجة ثانية، ومرحباً بك لي أختاً.

تكاد تدمع عيون الكل لكلام فاطمة، ومن أخفى دمعه، فإن قلبه كان يبكي وينوح، سارة وعمر وهما المقصودان لم يخفيا دمعهما، كانت الدموع عيوناً جارية، نظرت سارة إلى فاطمة وقالت:

-والله لا أدري، كأن قلبي يُغسل من جديد، كأني ولدت من جديد، لا أدري هل تلاشى الحقد والانتقام، حتى ابني قلبي يريد عناقه، وعقلي يريد لفظه وفراقه، قد ربيته على الحقد، آلة عمياء، وكنت أندم على هذه التربية في دواخلي، لكنه اختار طريقه، ودماء أبيه غلبت، وإني لمسامحة إياه الآن...

جرى داوود نحو أمه يقبل رأسها ويدها، ويعانقها بقوة، كان الوضع مؤثراً، ونظر لأمه سائلاً:

-هل عفوت عني يا أمي؟ هل عفوت عن أبي؟

-عفوت عنك ابني ديفيد... بلى أعتذر ابني داوود، ولكن لست أدري أي شعور أحمله نحو أبيك...

فجأة هلعت الأنفس لسماع صوت قنينة من زجاج تكسر، كان عمر من فعل ذلك، احتفظ بعنقها في يده، وأقبل يغالب دواره نحو سارة، أراد داوود

وخالد وفاطمة التدخل، لكن عباس أمرهم بألا يفعلوا شيئاً، هو يعلم صديقه، وهو يعلم ماذا سيفعل.

-خذي سارة، إن كان حقدك لا يزال باقياً، فاغرسي هذه القطعة الزجاجية في بطني، وإني والله لن أقاومك قط، افعليها وخلصيني، افعليها وأتمي انتقامك وارتاحي وأريحيني...

أمسكت سارة بعنق الزجاجة، نظرت إليها، أضحت تتأملها، هي الآن تحاور دواخلها، ها هو ذا قاتل أبيك وعمك وسليمان، والسبب في سجن أمك... يكشف عن بطنه، إنها فرصة النيل منه، اغرسي الزجاج فيه دون رحمة، هيا، هيا، هيا... بدأ هذا الصوت يتصاغر رويداً ويضمحل فجأة، ليغلب ويحل محله صوت آخر مجلجل، هذا عمر، هذا الذي أردت لقاءه في أخراك، هذا الذي بحثت في دينه فأحببت الله فهداك، هذا الذي بينك وبينه ثمرة حقد أينعت حباً وجاءت تُقبل يدك ورأسك تلتمس رضاك، هذ الذي اختلط دمه بدمك ليصفو القلب ويصبح قلبَ ملاك...

انتصبت سارة، ورمت قطعة الزجاج، ثم أقبلت معانقة عمر، عناقاً تلاشى فيه كل شيء، قد ولدا من جديد، صفق كل الحضور لهما، وأقبلوا يعانقونهما فوق عناقهما، استغل الفرصة عباس ومضى خارجاً، وأقبل بقطة بيضاء جميلة، وقال للمبتهجين:

-أخت سارة هذا صداقك من الأخ عمر، حفيدة من حفيدات القطة البيضاء "كاتي"

ضحك الكل، وحمل عمر وسادة ورمى بها صديقه العزيز، بل وأقبل نحوه معانقاً، فيما تعانقتا فاطمة وسارة عناق أختين، والبنتان التوءمان كملاكين يصفقان، لفتا انتباه سارة وسألت:

-هذا خالد، ولكن ما اسم البنتين الجميلتين؟

نطق كل الحضور جملة واحدة اسمهما وقالوا:

-اسمهما صفاء وهناء...

اللّٰهُمَّ اجعل كل حياتنا صفاء وهناء

تمت بحمد الله

صفاء وهناء

رواية

مالك بوروز

الطبعة الأولى
1442 هـ 2020 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد
جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com